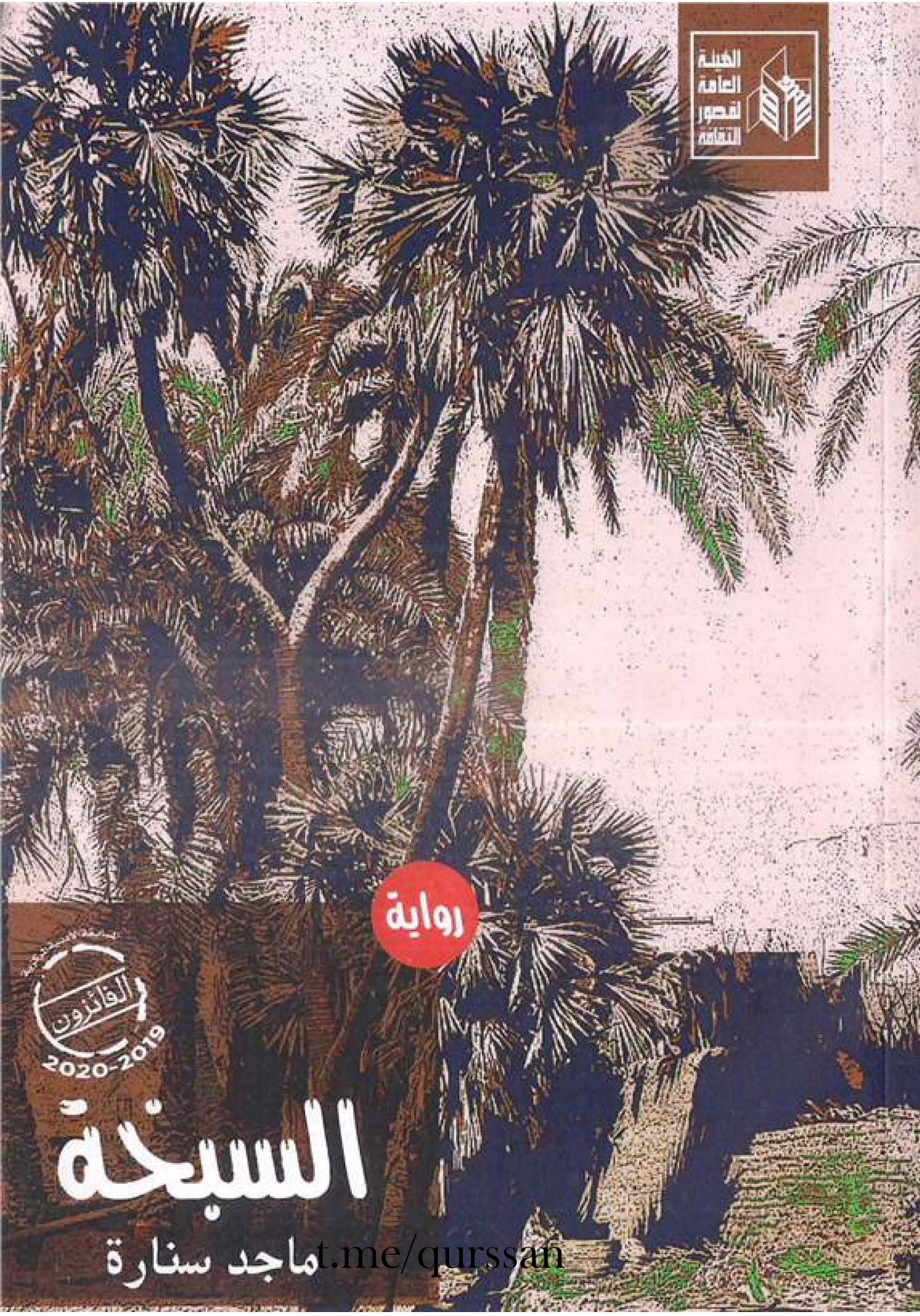
الهيئة العامة لقصور الثقافة
رواية
الفائزون
2020-2019
السبخة
ماجد سنارة
t.me/qurssan

t.me/qurssan

السبخة

(رواية)

ماجد سنارة

وزارة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة

t.me/qurssan

t.me/qurssan

(١)

أخرج من دار أبي مستترًا تحت جنح الظلام، أهوى الوحدة في الاتساع، السماء تبول على الأرض فتحيلها لوحل تغوص فيه الأقدام، أبحث عن نفسي التائهة في هذا الوقت، الناس نيام ولن يترصدني أحد، أحب المضي دون أن يعترضني أحد، إلقاء التحية يخرجني من التأمل، أبحث عن التوحد فيما فوقي والفناء فيه، منذ رحيل والدي، فقدتُ الإيمان بكل شيء، كنت في الرابعة عشرة من عمري، أقف تحت شجرة الجميز، صدرها ضامر وسيقانها جافة، كالمستجير من الرمضاء بالنار، تختلط قطرات المطر بالأتربة التي تغشي فروعها، فتسقط على قميصي محمّلة بالوسخ، أتحسسها «لا بأس».

أطفئ نور «الكلوب» وأنقل خطواتي بحذر، البرق يومض الطريق الموحل، يمنح مجالًا للرؤية ثم يتوارى، فأرى ذاتي منعكسة على سطح مرآة الظلام «العمى يقوّي البصيرة»... تواتني في لحظة ما فكرة قاتمة، فقأ عيني، لكنني أتراجع، مجبر على السير في طريق، محاولة تغيير الوجهة غير مجدية، النور جريمة، مذ رأيت أبي يستجدي الباشا ليمنحه المال، أمي كانت تعاني وقتها، لم يكن عمري الصغير يسمح لي بفهم طبيعة

t.me/qurssan

المرض اللعين، لم أهتم بعد ذلك بالمعرفة، للمعرفة ضريبة، فتحملت الضريبة ورفضت النور، الباشا يطرد أبي «كلب». صرت لا أرى بعدها الإنسان إلا على هيئة كلب.

ماتت أمي بعدها بثلاث ليال، كلبتي الحنون رحلت وتركت جروها الصغير يهيم ضالًا في هذا العالم الموحش، فقدت الأرض والوطن وصارت روحي مشردة تعيش الغربة في تربتها السبخة، كورقة ذابلة على غصن شجرة ماتت جذورها، لم أبكِ ليلتها، تماسكت، فقد كانت المرة الأولى التي أرى فيها دموع أبي، من الآن يبدو أن الأدوار ستتبدل، شرخ غائر أصاب حائطي الذي أستند عليه، الريح ستنفذ بعد الآن دون رادع، سأكون في العراء كـ «يوسف» جديد في جُب الحياة.

يتهادى لأذني بكاء رضيع، أشعل الكلوب وأتتبع الصوت حتى أقف مذهولًا، ظننته جنًا لا أؤمن به جاء ليمنحني اليقين، لسوء حظي وقعت عيني على طفل بداخل «شنطة» صغيرة، معلق على فرع شجرة توت، ينتحب بشدة، ويرتعد جسمه الصغير تحت وطأة المطر وزمهرير البرد، هذا صوت البقاء، إشارة للطبيعة كي تتوقف عن غيها، كان الماء تسلل لداخل الشنطة وبدأ في الانتشار، أملك الفرصة في إنقاذ الرضيع، يرين على وجهه الفزع، يبدو أنه يرى أمرًا مريعًا لا أبصره، هل هو تجسد الشيطان؟ لا أظن الشيطان يشغل باله بإنسان لا يؤمن بأي شيء، سينتهي به النقاش إلى ترك البشر وحالهم، فهم تائهون بما فيه الكفاية.

t.me/qurssan

أهم بأخذ الطفل والعودة به للدار حتى أنقذه من الموت وألقي به في جحيم الحياة، شيء ما يزجرني عن ذلك، صوت لا أعتقد به، انبثق مني، أخرسته منذ سنين فعاد إلي صوته، أنصاع له هذه المرة، سأتركه للنعيم، وأنجيه من التجربة، وأبعده عن الشر، ليجد نفسه دون امتحان ناجحًا بنسبة ١٠٠٪، وأنا راسب رغم أنفي، لم أقرر القدوم، لكن الإرادة العليا تفرض إرادتها وما علينا سوى الانصياع، يزداد بكاء الطفل، فينتابني ضحك هيستيري، المطر ينهمر على رأسي، أخاطب الرضيع:

- أيها البريء لن يرحمك أحد.

يرد علي بمزيد من الصراخ، لمَ يصر على البقاء؟، لن يستطيع الاحتمال، بذرة خبيثة ستطرح شجرة ملعونة، تبقى وحيدة دون أنيس، الشرور تنبع منها وهو لا يملك حتى حق الدفاع، ابن حرام.

تركته ومضيت، الموت سيضمه بين ذراعيه، سيمنحه الاطمئنان الباحث عنه بعيدًا عن الوحشة القاتلة، سيعلم بعد قليل أنه مهما استمرت الحركة فالمصير دومًا هو السكون. عدت إلى الدار، الليلة الوحيدة التي أمضيها بخارج قصر معبودتي، مسافرة في نزهة ستعود منها قريبًا، الماء يغمر جسمي وملابسي، أخلعها جميعًا وأرميها في طست الحمام، أملأ الماء بـ «الكوز» من «جردل» مملوء بالمياه، أسكبه على رأسي وبدني، تدمع عيني عندما أتذكر أبي، يذبل كوردة اقتطفت من غصنها، يتهاوى كريشة في مهب ريح

t.me/qurssan

الفقد والانكسار، لم يستطع النظر لعيني بعد طرده من القصر أمام بصري، صامتًا كان لا يتحدث، أراد الموت فلم يبخل عليه رغم عطلة نهاية الأسبوع، ذهب من الهم وتركني في الضنك وحدي، ليته كان مثلي، مننت على طفل غريب براحة أبدية، ورماني أبي للشقاء الدائم، للطفل النعيم، والعاطفة تؤدي إلى الهلاك... فسامحني يا أبي، فقد صدق الباشا، فكل هذا الوفاء لزوجة لا يخرج إلا من روح كلب.

***

يجلس «عزرا» على أريكة في صحن الدار، يسمع احتكاك المطر بـ «المشمع» الذي فرشه على سقف الدار، ليمنع المياه من التسلل والسقوط على الأرض الطينية، قبل ذلك كان المطر وبالًا عليه، الدار تكون عبارة عن برك متقطعة، يظل ينزح الماء لساعات حتى ينفصم ظهره من التعب، وتظل الدار لأيام حتى يجف الطين ويعود صلبًا كما كان.

يفتح عزرا صندوقًا مستطيلًا بحجم علبة حذاء، يخرج منه الذهب المتوهج تحت ضوء لمبة الجاز التي تستقر بجوار الشباك، يتفحصهم معجبًا، يقول في نفسه: «أماني الوحيد، وسبيل نجاتي إذا أوشكت السفينة على الغرق».

تدخل عليه زوجته بعباءة من القطيفة، غزالة يتضوع منها المسك، شرسة في نظراتها، ذات بشرة بيضاء مشربة بحمرة

t.me/qurssan

البطيخ المُرمَّل، ووجه مستدير كقرص الشمس، تميل إلى الطول كدوحة صغيرة، ثمارها ناضجة وخصرها لين كعجين الخبيز، تقول له بصوت عذب:

- كل يوم والثاني تخرج الذهب وتتأمله كأنه سيطير.

يبادلها نظرة باسمة:

- أتغارين من اهتمامي به؟

- «إيستر» لا تغار من القمر.

- الذهب في متناول اليد، أما القمر فبعيد.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن الذهب في يدي وأمام عيني وعينيك، لكن القمر نراه ولا نستطيع لمسه أو تحسسه بأيدينا.

- لكنني لا أغار.

- إذن لا تحبين.

- لمَ؟

- لأن الغيرة والحب صنوان لا يفترقان.

ترد ساخرة:

- الغيرة ملازمة للامتلاك، ليس الحب.

- لكنني أغار عليك.

- أدري؛ لأن ذاتك لم تكتمل.

- أتقصدين أنني ناقص؟

t.me/qurssan

- يبدو أنك تفكر في فرق السن بيننا كثيرًا.

- قد يكون.

إيستر تنظر له مُطمئنة:

- لا تقلق عزيزي، فأنت اليهودي الوحيد في القرية، وإيستر لن تتزوج على غير ملتها.

تبدو عليه الصدمة:

- ولو كان هناك غيري، هل كانت ستتغير الأمور؟

- يجوز.

- إذن فأنتِ مرغمة عليَّ.

- الاحتياج يساعد على التأقلم.

فيقول عزرا وقد بدت في ملامحه بوادر غضب:

- التعليم أفسدك.

تقترب منه إيستر، تجلس على حجره وتأخذ منه قبلة غرزت من خلالها أسنانها في شفته السفلى فتساقط منها بعض الدم، ينظر لها بعين اختلطت فيها الرغبة بالألم، وضع الذهب بجانبه، وحاول الانقضاض عليها، منعته بكلمة واحدة:

- أنا نجسة.

يرفع عزرا رأسه لأعلى، يقول:

- مبارك أنت أيها الرب، لأنك خلقتني رجلًا ولم تخلقني امرأة.

ضحكت إيستر من منظره، وقالت:

t.me/qurssan

- الشريعة أرادت جعلنا جواري للرجال والطبيعة تصر أن تجعل الرجال عبيدًا لنا.

- هذا يتنافى مع تعاليم الرب.

- لكنه يتفق مع الواقع، وأنا وأنت خير مثال.

يلعنها عزرا في سره، دومًا ما تحاول تعرية ضعفه أمامها، تدوس أية بادرة كبرياء تصدر منه، كالفيضان هي، غمرت أرضه فلم يعد له سوى التسليم أمام شبابها الفتي وأنوثتها الجامحة، يفكر قليلًا، يقول بمكر:

- أنا ملك يديكِ يا إيستر.

- والذهب؟

- فليذهب إلى «الدولاب».

يضحكان سويًا على صوت المطر.

***

استيقظ «جلال» فزعًا من نومه على صوت ودقات طبلة «سلطان» المجذوب، حاول تبين الكلام فلم يدركه، ارتدى جلبابًا على عجل وقام قبل أن يغسل وجهه وفتح الباب، يسأل أحد المارين عما يدور في القرية، يخبره:

- المجنون ابن المجنون بيقول إنه لقَى عيل ابن حرام في شنطة معلقة على فرع شجرة، قاطع النفس على أول الترعة.

t.me/qurssan

لبث لحظات جامدًا لا يلوى على الحديث أو الحركة، مضى الرجل في طريقه، كان الناس يركضون من أمام الدار تجاه الترعة كأن القيامة قد قامت، يخبر أمه حين يراها بالأمر، تريد الخروج فيطلب منها المكوث في الدار حتى يعود، سيطلعها على الأمر كله، ثم يمضي نحو الحمام، يتمضمض ويغسل وجهه، ثم يخرج من الدار، يصل لهناك، المشهد يبدو مهيبًا، حقول البرسيم تغطي أديم الأرض الذي اكتسى بالخضرة، الرجال يقفون بجلابيبهم الفلاحي وأقدامهم المتشققة المتجردة من «المراكيب» عند جل الواقفين، والنساء يضعن طُرحًا سوداء على شعورهن ويرتدين عباءات من «الفسكوز» أو يتشحن بالسواد، يقول «زغلول العريان»:

- كفرة لا يملكون قلب.

يضيف «سعيد أبو خطاب» باصقًا على الأرض:

- اخس... لكن هنتوقع إيه من زاني وزانية غير الخسة؟

يمسك «عاطف أبو طاقية» المسبحة ويقول:

- خير إنه مات، أي شيء ينبت من الحرام النار أولى به، وهو بذرته نجسة... ربنا نجاه.

يكظم جلال غيظه ويمنع صوتًا مدويًا من الانبعاث من خياشيمه.

يقول «همام أبو راخية»:

- يا ناس ربنا له حكمة في موته، هنكفر ونتحدى إرادة ربنا يعني؟

t.me/qurssan

يمشي «عاطف أبو طاقية» أنامله على لحيته الخفيفة ويقول:

قدر الله نافذ، والخيرة فيما اختاره الله، وبعدين من كان سيربى نبت شيطاني في داره، حتى اللعنة كانت تحل عليه والفقر يعشش في جيبه.

ينفجر جلال كبركان خمد طويلًا، يندفع عنيفًا، ويطلق حممه على الجميع:

- ما لكم يا عالم عِرر؟! بدل ما تدفنوا الطفل وتدعو له وتريحوا روحه، نازلين خوض في سيرته وسلخ في أعراض أهله، لا أحد يعلم الحقيقة يا أهل قرية «القراقرة»، وان بعض الظن إثم، ولن يفيد كلامكم في شيء سواء أكان ابن حرام أو ابن حلال، النتيجة إنه مات، واكرام الميت دفنه.

قال أحد الواقفين بحماس:

الحق ما قاله سي جلال... يلا يا أهل البلد على التُرب.

اقترب أحد الرجال وحمل الطفل بلفته ومضى وخلفه الرجال والنساء عدا واحدة، تركتهم يرحلون ثم أخذت الشنطة وهرعت بها نحو دارها، السعادة تملأ جوانحها من الغنيمة التي أبت بها، بينما وصل أهل القرية إلى المقابر الموجودة بجانب «الرُشاح» رائحة تنتنة وجثث حيوانات متحللة، وأموات، مشهد تراجيدي مثير...اختلفوا فيما بينهم حول المقابر التي سيدفن فيها الطفل، كل رأس عائلة يرفض اقتراب الطفل من مقابره،

t.me/qurssan

كل يخشى من تسلل نجاسته إلى الأموات، صرخ فيهم جلال بحكم أنه ابن عمدتهم الراحل، رفض العمودية بعد أبيه فحرمها الباشا على الجميع، والخفر صاروا يعملون في أراضيه، يحميهم بطريقته الخاصة، صمتوا... بعد لحظات تشاوروا، واستقر رأيهم على دفن الطفل في مقابر عائلة جلال، اعترض أعمامه فأخرسهم بنظرة حانقة:

- سأدفنه في عين أبي... انتهى الكلام.

حاول أحد شباب العائلة الاعتراض فصرخ جلال في وجهه:

- العائلة ليست طاهرة للدرجة التي سينجسها طفل... يا فلاتية.

ضحك البعض رغمًا عنهم، بينما جز رجال العائلة على أسنانهم دون القدرة على التفوه بكلمة واحدة، أخذ جلال الطفل بين أحضانه وطبع على خده قبلة حانية، ثم وضعه في القبر بعد أن حفره رجلان، أهال عليه التراب وحده دون مساعدة، حين فرغ من ذلك نظر لهم ناقمًا:

- يلا بالسلامة، شكر الله سعيكم جميعًا، دعوني وحدي أدعو لأبي على انفراد.

استجابوا لقوله وغادروا المقابر، بصق جلال مع آخر واحد يمضي من أمامه وقال:

- بلد تعِر.

t.me/qurssan

وصل «فرج» للقراقرة برفقة امرأة عشرينية من «البندر»، تجاوز فرج السبعين بقليل، يسير بجلبابه الأسود و«طاقيته» البنية، يدس قدميه المفلطحتين في «بُلغة» يمتد طولها لنصف متر، يمسد بسبباته الشارب المصبوغ، غزاه المشيب منذ سنين، تتعلق «صباح» بمرفقه لتحتمي به من نظرات العابرين، المحملة بالتطفل، تضرب بقدميها الأرض، يبعث خلخالها رنينًا مثيرًا فاتنًا من تحت عباءتها السوداء، وخصلات من شعرها الفاحم الناعم تتسلل خلسة من تحت الطرحة، يزداد وجهها الخمري جمالا وألقًا، قابلهما في الطريق سلطان المجذوب، فقال:

فرج حط نفسه في ضيقة.

يمسكه فرج من كتفه مشيرًا له نحو صباح، ويقول:

اسمع يا بن المعاتيه... دي صباح، صباح قلب فرج، زوجته على سُنة الله ورسوله.

ركض سلطان وأخذ ينادي في أرجاء القرية يزف لأهلها خبر زواج فرج من مُهرة ستودي بحياته، سمع ابناء الخير، فانتابهما الذهول، وحاولا تكذيبه للوهلة الأولى، لكنهم ما فتئوا أن ذهبوا إلى دار أبيهم، ليستيقنوا من الخبر، فلا يقين يعلو رؤية العين.

t.me/qurssan

نادى «عوض» على أخيه الكبير «عزت»، ليرافقه لدار أبيه، نزل عزت من المقاعد وخرجا سويًا من الدار المتواضعة، وصلا دار فرج، فدق عوض على الباب بشدة، يفتح فرج لهما:

- يا مرحب يا مرحب بالحمار والجحش.

يكظما غيظهما من سخريته، يدير لهما ظهره فيتبعاه، يغلق عوض الباب، ويجلس فرج على «الكنبة» ويمدد ساقيه عليها، يبتدره عوض قائلًا:

- حقيقي إنك إتجوزت يابا؟

يقهقه فرج، ويصفق بكفيه:

- على سُنة الله ورسوله.

فيقول عزت بطريقة لينة:

- ودد يرضي ربنا يا حاج برضه؟

- مش أحسن ما عيني تزوغ على نسوان البلد؟

فيجيب عوض بطيش:

- اختش يابا.

- اخرس يا كلب.

يتدخل عزت للتهدئة محاولًا وضع هدنة بين الطرفين:

- يا حاج، عوض صغير ولا يقصد ما قاله.

- ليه؟... لسه بيعملها على نفسه؟

- حاشا لله، لكن دمه فاير ومندفع حبتين، لكن في الأول والآخر ابنك ومن صلبك وخايف عليك.

t.me/qurssan

ينظر لهما فرج باحتقار:

- خايف علي ولا على فلوسي؟

يشير عزت بيديه رافضًا ويقول بابتسامة صفراء:

- الفلوس تروح وترجع، لكن أنت الخير والبركة.

- والله يا ولاد «سهير» أنا عارف إن نفسكم تشوفوني عظم في قفة... الليلة قبل بُكْرَه.

يرد عزت بهدوء مشبع بالبرود:

بعد الشر عنك يا حاج، دايمًا ظالمنا.

ظالمكم؟! طيب بالسلامة لأجل ألبي واجبات الجماعة.

تعترض عوض نوبة غضب مفاجئة:

ما تعقل يا رجل، وتستحي من نفسك، عضمك كبر ولحمك مس ولسه بتعافر؟... مش كفاية حارمنا من حقنا، وطلقت أمنا وطردتها من دارك وخلتنا نعيش بعيد عنك وعن خيرك، وفي الاخر تفرج علينا الناس، وتخليهم يقولوا لنا أبوكم مخه اتلحس.

يعتدل فرج في جلسته، يسلط على عوض نظرات نارية، بها قبح الغضب، يحني عوض رأسه، ويشعر بوطأة الموقف، والخوف يمشي بجوارحه، يبتسم فرج بمكر، ويقول:

بما إن مخي اتلحس، أنا هاخليك تتفرج على الجِنان.

تظلم ملامح عوض، ويبتلع عزت ريقه من القلق:

يا صباح، يا صباح قلبي.

t.me/qurssan

تأتي صباح بخطوات واثقة، ارتدت عباءة بيتي تبرز مفاتنها، تقول:

- نعم يا فرج صدري.

ينظر لهما فرج هازئًا من اتساع أعينهما وانفغار فوه عوض، يقول فرج:

- شوفتوا يا ولاد المقشفة، فرس حرنان بدل النسوان الترقيع اللي يسدوا النفس اللي انتوا رامين نفسكم في زراييهم.

صامتان من الذهول والصدمة، يشعران بخيبة أمل فادحة، يديرا ظهريهما ليرحلا عن الدار، يستوقفهما فرج:

- استنوا.

يستديرا إليه من جديد، ينظر إلى صباح قائلًا بود:

- ارفع العباءة حبة، وريهم كعب رجلك يا صباح قلبي.

تمد يدها وترفع العباءة قليلًا، ترفع كعب قدمها، تقع أعينهما عليه.

- لبن جاموسة مخلوط بحبات الفراولة.

يقهقه فرج شامتًا:

- مراية يا كلاب.. مراية أنضف من وشكم، ووش أمكم ونساوينكم الجربانين كمان.

يحسا بالمذلة، وكسرة النفس أمام زوجة أبيهما، يردف فرج بصوت صارم:

- غوروا في داهية.

***

t.me/qurssan

بعد رحيل أبي، أحسست أن الدنيا تضيق بي، صغيرًا ضعيفًا في مواجهة الحياة بكل قساوتها، لم يترك لي أبي من المال إلا اليسير، اعتقدت أنه لن ينفد سريعًا، حتى لو حدث، فالناس حواري وسيقفون بجانبي حتى أصلب عودي وأصير قادرًا على العمل، العمل الذي أفنى والدي حياته فيه، في حقول الباشا، وسكب ماء وجه أمي في قصره... المال شح ولم يُعرني أحد اهتمام، التمست لهم الأعذار؛ لمعرفتي التامة بحالهم، بالكاد يحصلون على قوتهم وقوت عيالهم، فاخترت أن لا اختار، أسلم نفسي للأقدار تفعل بي ما تشاء، فلم أجد أي طريق أحصل من خلاله على كسرة الخبز إلا من يد الباشا، ذهبت حينها إلى ريس الأنفار، المشرف على الفلاحين العاملين في الحقول، يحدوني الأمل أنني أعثر على ضالتي، أخبرني الريس «حلمي»:

العمل في حقول الباشا لا يكون إلا للرجال.

أردت أن أريه ما يجعله يتبين أنني لست خنثى أو أنثى، تراجعت في النهاية، فلن تجدي الرؤية شيئًا في هذا التوقيت، سيسخر مني، وسيجعلني مزحة لفلاحي القرية، فرجعت إلى الدار حزينًا مهمومًا يائسًا، دود الجوع يتلاعب بأحشائي، أرتمي على الحصيرة البالية التي بقت لي، بعد بيع الكراسي والسريرين، أحاول النوم، البق والناموس يأكلان جلدي ويغلقون كل السبل المؤدية للنعاس، فيعبث بي الظلام، لكنني مع الأيام أعتاد عليه،

t.me/qurssan

ويميط عن نفسي الخوف والجهل في آن واحد، فالعفاريت لم تكن قرينة الظلام.

تقل حيلتي وأهون على الناس، لم يعد لي سوى طريق واحد، مجبر على السير فيه، كل الدروب تؤدي إليه، أنا والأرض والناس، أصل إلى القصر بجلباب رث وأقدام حافية، التراب يغشى ثوبي، وأنا واقف أمام القصر، أحاول الدخول من البوابة، حارسها يزجرني ويمنعني من الدخول، أتوسل إليه فيرفض، ويخرج عصاه الخرزانية وينزل بها على جسمي، أحس بألم حارق يطوف بجلدي، أهرب من ألمي وأملي وأركض بعيدًا عنه، أبكي تحت شجرة الجميز، يكاد الجوع يهلكني، فأنظر لأعلى الشجرة، أجد الثمار على فروعها كالنجوم البارقة على صفحة السماء، فأتسلق الشجرة بحذر، وأتنقل ما بين الفروع بخفة ورشاقة، أقطف ثمرة والثانية، فتطمع بطني في المزيد، لكن كيف السبيل ويداي صغيرتان ولا بد لي من الهبوط بحذر، وجيبا جلبابي مثقوبين فلا تستقر فيهما ثمرة؟ بعد لحظات، أهتدي لفكرة تنقذني من حيرتي، فأرمي الثمرة وراء الأخرى على الأرض بحيطة، حتى لا يُخدش جلدها فتفقد غوايتها، ثم أنزل من الشجرة، «دستة» من ثمار الجميز تفترش الأرض أمام عيني الجائعة، ألتقطهم وأعود بهم للدار، أقضي بهم يومي وأسدُّ قليلًا من جوعي الفاحش. أظل على حالتي هذه طيلة الربيع، أتناول الجميز طوال اليوم،

t.me/qurssan

وأملأ ،قُللي، من طلمبة قريبة من الدار، حتى انتهى الربيع، فانتهت مقاومتي وبدأ صيفي الحار.

أذهب إلى القصر، هذه المرة لم أستأذن في الدخول، أمرق كالسهم من البوابة، وأمضي نحو هدفي، يلاحظني البواب بعدما صرت على مبعدة منه، يضع ذيل جلبابه في فمه ويركض خلفي، الجناييني والخدم يتابعون تقدمي بذعر، أدخل من الباب والبواب خلفي، لم أدرِ بنفسي إلا وأنا ساقط على سجادة حمراء ناعمة، ليست كحصيرتي الخشنة، يمسك بي البواب من ياقة الجلباب، يستوقفه الباشا حين تقع عيناه على وجهي سائلًا:

من هذا الجربوع أيها الغبي؟!

يجيب مطأطأ الرأس، مرتعد الفرائص:

غفّلنا ووصل إلى هنا، العفو والسماح يا سيد البلد.

أرفع عيني في هذه اللحظة. فأبصر الباشا بملامحه المتجهمة، وامرأة أربعينية، وفتاة تبدو في العشرين ينظران إلي في دهشة، يقول الباشا:

حسابك معي عسير.

يرد البواب متوسلًا:

- يا باشا...

- اخرس، مخصوم منك نص شهر، وكلمة أخرى ينقطع عيشك.

يهز رأسه راضيًا، الانكسار يلوح من عينيه، ينظر لي الباشا، يسأل بغطرسة:

t.me/qurssan

وأنت مين يا جربوع؟

أنا ابن الكلب.

يضحك ثلاثتهم، خاصة الفتاة التي بدت قهقهتها قادرة على إذهاب عقلي الصغير:

- أي كلب فيهم؟

- «زيد أبو سرحان».

يضع الباشا يده على رأسه متفكرًا، ثم يقول بعدما تذكر:

- آه... مات من فترة صحيح.

أقول وأنا جالس على السجادة:

- نفسي تمن عليَّ وأحل مكانه.

- حين تكبر.

- أعمل هنا في القصر.

يقهقه الباشا ساخرًا:

- وماذا تعمل هنا؟

- أي شيء، حتى لو أحرس القصر كالكلاب.

تتدخل الفتاة في هذه اللحظة، تفقدني الصواب منذ وقعت عيني عليها:

- لكنك ستكون كلبًا أليفًا

- سأتعلم الشراسة.

تضحك بشدة حتى يهتز صدرها:

t.me/qurssan

لكنك ما زلتَ صغيرًا.

التجربة تحكم.

تنظر لي وعيناها تبرق بسعادة قريبة وتقول لأبيها:

من الممتع والمسلي بعد طلاقي أن يكون لدي كلب من نوع خاص.

لم أكن أفهم حينها معنى الطلاق، يعترض الباشا بصوته المخيف:

ولكن...

تبتسم له وتقول بصوت ملائكي:

علشان خاطري.

تنفرج ملامحه:

خلاص يشتغل هنا.

تنظر لي بكبرياء، أتأكد حينها أنها من فصيلة ونحن من فصيلة أخرى تمامًا، تقول:

وريني «بروفة».

انظر لها ببلاهة فتلاحظ أنني لم أفهم بعقلي الصغير قولها، تقول ضاحكة:

اعمل لي كلب.

أغير وضعيتي و«أفلقس» أمشي على أربع، فتطلق قهقهات مشبعة بالسرور، تصيبني بانتشاء لا أدري ماهيته، تقوم من مكانها وتصرخ بفرح:

t.me/qurssan

- يا ربي... إنني متفردة، استثنائية، لم يسبق لي أن رأيت من قبل أنثى تملك كلبًا بشريًا.

تتركنا الهانم ضاحكة بصحبة قهقهات الباشا، وتستدير ساحرتي حول نفسها وتستدير معها روحي الهائمة، تغزوني السعادة، فقد صرت متفردًا لأول مرة في حياتي، حتى لو كان تفردًا من خلال كوني كلبًا بشريًا.

***

وصل جلال محطة رمسيس، تكتظ المحطة بالمسافرين، يبدو على وجوههم الانتظار، يسرح الطرف فيهم، يحب تأمل الناس، يريد دومًا حفر الانفعالات الغريبة في ذاكرته، يشعر بأنه يشرب تجاربهم في جوفه، يعيشها معهم حتى ينام ليلًا، يتخيل كل انفعال غريب، يختلق قصة له ويعيش بكل حواسه في داخله، يرى ذلك تفريغًا للشحنات السلبية وتطهيرًا للذات، يختلق الخبرات لنفسه فيزداد نضجًا من خلال هذه الانفعالات، لا يهتم بتحري الحقيقة ومعرفة دوافع الانفعال، فالحقيقة وجه واحد وللخيال ألف وجه، يردد دومًا: «الخيال حُر، والواقع قيد».

يقع بصره أخيرًا على امرأة بعباءة فسكوز، تلبس «ذنوبة» في قدمها وتضع شالًا شفافًا على شعرها، تمد يدها البيضاء للمارة، قليل من يعطف عليها ويمنحها القليل، فتنبع من عينيها فرحة ما تلبث أن تتوارى خلف ستار الهم الكثيف المخيم على وجهها،

t.me/qurssan

يحس أنه يعرفها، فيقترب منها، وعيناه تزداد دهشة، يسود وجهها من الانكسار المشوب بصدمة حين التقاء العينين، يحس بشيء ما يتحرك بداخله، لسعة تصيب قلبه، يقول:

سلوى؟!

جلال أفندي

نظرة الانكسار المشبع بالخجل تصيب قلبه بالهذيان، يعشق التفاصيل الشاذة، الانفعالات التلقائية المجردة من الزيف:

- ماذا تفعلين هنا؟!

تتمنى لو امتلكت الشجاعة ورمت جسدها تحت قضبان القطار حتى تتخلص من وطأة الحرج:

- كما ترى يا سي جلال.

تتسولين؟!

تجيب بصوت يقطر همًا:

- أحسن من إني أبقى ست بطالة.

- كنت اشتغلت في أرض الباشا زي كتير من ستات البلد.

- الرجالة عينهم مني.

هذا الحياء الذي يشعل الصدر يجعله مفتونًا بها وهي تتحدث ووجنتاها في حالة احمرار:

- خلاص سهلة، تزوجي.

ترفع عيناها له للمرة الأولى منذ وقفا بهذا القرب من

t.me/qurssan

بعضهما، تتلاقى النظرات، فيحس جلال بقلبه يتمايل كعود برسيم من فرط الحبور، تقول سلوى:

- الرجالة في البلد لما يريدون الزواج، لا يفكرون في امرأة مطلقة.

يفهم جلال جيدًا عادات القرية وتقاليدها، لكنه يقرر اصطناع الجهل حتى لا ينقطع حبل الحديث:

- لم؟

- المرأة المطلقة خلقت للمتعة لا الزواج.

يصمت جلال قليلًا، ثم يقرر مواصلة الحديث، لا يستطيع إمساك لسانه عند الانطلاق:

- كنت خدمتي في قصر الباشا ما دام في الغيط عين الفلاحين منك.

ترد بكبرياء كاد يفقده صوابه:

- لا يمكن أبدًا أخدم عند حد مهما كان مقامه.

يسألها جلال ذاهلًا:

- أليست الخدمة أفضل من التسول؟

تجيب وقد اشتعلت وجنتاها من فرط الانفعال:

- أبدًا... أنا أتسول من ربنا والناس مجرد وسيلة، وبعدين فيه واحد هيعطيني مليم ويكون طمعان في حاجة مني؟... أبدًا... ولو طمع... ذنوبتي تنزل على رأسه تزغرد، ولو قرر يبخل عليَّ

t.me/qurssan

بالصدقة ربك يكرمني بغيره، لكن عند الباشا، إهانة وذل من ناس معينة، عينك في عينهم طول الوقت، ليس مجرد عابر سبيل، يعني يا جلال أفندي، مليم بدون التزام بحاجة أشرف من جنيه كل مليم فيه بالتزام.

ذهول تام يعربد على ملامحه، أفحمته بحجتها وصواب منطقها، لا يدري إن كانت عاطفته هي التي استقبلت كلامها، أم أن الاقتناع صادر من عقله، لا يهم، يود لو أتى بحركة مجنونة وعانقها الآن، لكنه يخشاها وروحه تتجنب إغضابها دون سبب، ذهول لها:

أنتِ صح، لكن ممكن نرجع البلد ونبطل تسول، وليكِ مني ما يكفيك كل شهر.

نظر له بحزن، تكبت ألمًا بين ضلوعها:

تفتكر واحدة تحملت التسول لأجل متكونش تحت ضرس ما... ترمي نفسها في الآخر تحت رجلك يا جلال أفندي؟

صدقيني، لا أريد منكِ التزامًا.

لا دوام دون التزام.

اعتبري المال دين.

الدين هم بالليل ومذلة بالنهار.

لن أطالبك به.

وأنا لا آخذ شيئًا لا أستطيع سداده.

t.me/qurssan

تقتحمه بحديثها الذي يقطر شهدًا، يريد ابتلاع كل كلمة تصدر من شفتيها، وكل اختلاجة تعتري ملامحها ليحيا بها:

- عودي معي الآن، ونتناقش في القطار.

- سأعود وحدي قبل حلول الليل.

- إذن سأنتظر معك.

- لا تعاقبني، فيدي لن تمتد لأحد، وعينك تراقبني، امشي أرجوك.

- يهز رأسه موافقًا، وعيناه سائحة في ملكوتها:

- حاضر.

تغتصب مِن أساها ابتسامة واهنة، تكسبها حلاوة فوق حلاوتها، فيكاد جلال يتقافز على أرض المحطة من السعادة، يصل في هذه اللحظة القطار، تقول سلوى:

- توصل بالسلامة يا سي جلال.

تدير ظهرها له، نظراته تتبعها، حتى تختفي، فيحادث نفسه هامسًا:

- الله يسلمك... الله يسلمك يا سلوى يا بنت حماده المقشف.

t.me/qurssan

(٣)

دخلا عزرا وشوقي حقل ذرة بجوار الترعة، يهتديان على ضوء القمر في خلع كيزان الذرة من عيدانها، ينتظر عزرا موسم الذرة كل عام على أحر من الجمر، لا يملك الأرض، لكنه يملك الذهب، الأرض قد تؤخذ، تغتصب، تُحتل، لكن الذهب كطبيعته، يستطيع التخفي، التشكل كحرباء، أما الأرض فهي للأقوى دائمًا. خرجا من الحقل بعشرة كيزان من الذرة البلدي، يخرج شوقي «الكوالح» من «الشيكارة»، ويحفر عزرا في الأرض بشقرف أتى به شوقي حتى تكون مساحة دائرة بحجم نصف البطيخة، يضع شوقي الكوالح فيها ويرصها عزرا، فيكب شوقي الجاز بين الكوالح ويخرج عزرا عود ثقاب ويلقي به بين الكوالح، تتوهج النار في الكوالح فيهتديان على ضوئها ويقومان بتعرية الكيزان من أثوابها، تظهر أسنانها الشهباء، فتلتمع عين عزرا ويملس على بطنه في اشتهاء، ويجز شوقي على شفتيه حين يرى نضرة الشباب بائنة على صدر الكيزان، فيرصونها على الكوالح بعدما أناموها بحذر، ووهج النار يخبو تحت الكيزان، التي تتقلب متأوهة تحت لهيب الأنفاس، يخرجهم عزرا فيلسعه الشرر، فيضع أنامله في فمه، ويبللهم بريقه، يضحك شوقي من فعلته، فيقول له عزرا عابثًا:

t.me/qurssan

- يكفي لتشرق وروحك تطلع.

يهدأ شوقي قليلًا:

- أين الكيس؟

- بجانب النصبة من جهة اليسار فوق الرجلة.

يقوم شوقي مهرولًا ليحضر أدوات الشاي، قبل أن تموت النار وتستحيل رمادًا، يفتح الكيس فيجد بداخله «الكنكة» و«تلقيمة» شاي، وسكر بالكاد يكفي لكوبين:

- يهودي نتن.

يضحك عزرا منه، ويقول مدافعًا عن نفسه:

- الإسراف وحش، وبعدين كثرة الشاي بعد الدُّرة تجيب انتفاخ.

يرد شوقي ضاحكًا:

- ربنا ينفخك قادر يا كريم، لحد ما تطق.

يقول عزرا والابتسامة ما زالت على شفتيه:

- عجاب الناس في البلد، كلهم يحبوا الطفاسة.

- انتهينا يا شيخ عزرا... إزازة المياه فين يا أخويا؟

ينظر له عزرا دهشًا وقد اخنف منخاره:

- آآآه... نسيتها.

يرد عليه شوقي، يبدو عليه الغضب:

- آه، ما أنت بتفكر من مكان آخر غير رأسك.

يقهقه عزرا، حتى أنه يتمرغ في الأرض من فرط الضحك، يسترد ثباته بعد قليل، ويقول لشوقي مطمئنًا:

t.me/qurssan

- ملحوقة.

ينظر له شوقي مترقبًا وقد هزته نشوة الأمل:

كيف؟

يجيب ببساطة:

- املأ الكنكة من الترعة.

- ما أنا قلت لك وأنت لم تصدقني، إنك تفكر من مكان آخر غير رأسك.

يرد عزرا بشكل حازم:

- افهم يا تيس... الترعة ماء نيل، لا تخف ليست بولك أو فضلاتك، وبعدين حينما تغلي المياه، تعود لأصلها، النار تنقي كل شيء يا شوقي.

ينظر له شوقي معجبًا، ثم يصفق له قائلًا:

الله عليك يا جهبز عصرك وزمانك... فعلًا صدق من قال: «اليهود لهم في كل خرابة عفريت».

يرد عزرا مطرقًا ببصره نحو الأرض:

- الزمن يعلم، ومن قلب المآسي تنتزع الخبرات.

يعوج شوقي أنفه لعزرا، يقول:

- بدأنا في المرع أهوه، استنى أملا الكنكة وأرجع.

يبتسم عزرا ويمازحه قائلًا:

- طيب حاسب أصل عفريت الخرابة يعملها معك وأنت مش واخد بالك.

t.me/qurssan

يضحك شوقي، ثم يرجع بالكنكة عائمة بالماء، يضعها فوق الكوالح، يقول:

- ربنا يستر علينا.

ثم يشرعان في أكل الذرة، أسنانهما تنغرز بقسوة في حبات الكوز، يجلطان الأديم بعنف، اغتصاب تام دون هوادة، يقول شوقي:

- تعرف يا عزرا، على الرغم إنكم أولاد قردة وخنازير ومكروهين من طوب الأرض، إلا إني بحبك، أي والله..

يعود عزرا للضحك مرة أخرى من طريقة شوقي وتلقائيته في الحديث، يقول:

- وعلى الرغم من إننا شعب الله المختار، والباقي عبيد أنجاس إلا إني بحبك رغم نجاستك.

- نجاستي؟! يكونش عملتها معاك وأنا مش واخد بالي؟

يعلو صوت ضحكة عزرا، يشعر بسعادة غامرة حين يجلس مع شوقي، صديق عمره، يفكر شوقي قليلًا، ثم يقول:

- ليه الناس عمالة تقتل في بعض يا عزرا؟

ينظر له صامتًا، يشعر بالعجز عن الإجابة، يقول وهو يربت على كتف شوقي:

- كُل درة يا شوقي... كل درة يا حبيبي.

يقضم شوقي قضمة طويلة، تلوح من عينيه نظرات المودة

t.me/qurssan

والحب والامتنان لصديقه اليهودي و«يحبسان» بالشاي المعمول من ماء الترعة... ولدهشة شوقي، كان كوب الشاي الأطعم في حياته.

***

يفرش جلال حصيرة في المقاعد، ينثر عليها وسائد ومساند حتى يتكأ عليها برفقة سلطان المجذوب، يرى النجوم في السماء كعرائس في ليلة الزفاف، تتأنق بشكل يبعث على الافتتان، يمسك سلطان «الجوزة» يسلكها بسيخ، ثم يضع فيها الماء، وينفخ في عود الغاب بشدة، حتى تبدو نظيفة من الداخل، يضع قدرًا مناسبًا من الماء، ويشد نفسًا، يتأكد من انسيابية الهواء بداخلها، ينظر جواره، فيجد الفحم مشتعلًا في «الشالية»، وجلال يأتي بكيس من «المعسل»، يضعه أمام سلطان، الذي يمسك بدوره بالـ «ماشة» ويأخذ قطعًا من الفحم، ويتوج بها حجر المعسل، يبدأ جلال في شد النفس تلو الآخر، تكركر الجوزة، ويخرج الدخان كثيفًا من خياشيمه، يقول ضاربًا جنب سلطان بمحبة:

- والله إيدك تتلف في حرير.

ينظر له سلطان ببلاهة، لحظات تمضي ثم يقول:

- عاوز أكركر.

يضحك جلال، ويناوله الجوزة:

- كركر لكن بشويش.

t.me/qurssan

يأخذ سلطان الجوزة بين شفتيه يكركر بعنف، يتخيلها امرأة، يغمض عينيه ويعيش خيالاته المحمومة حتى ينقبض صدره، يسعل بشدة، يقول له جلال:

- غشيم، الجوزة عاوزة شوية حنية وشوية غشومية، لكن أنت داخل برأسك.

يقوم سلطان من مكانه، ينطح رأسه في الحائط الطيني كالخروف:

- برأسي كِدهون.

يقهقه جلال بشدة، يحس روحه تتقافز في صدره، منتشية بلذة السعادة:

- اهدأ بدل ما رأسك تروح أكثر ما هي رايحة.

يستجيب له سلطان، يجلس بجواره، يمسك جلال بالناي، ويطفق في النفخ من روحه، يداعبه بأنفاس حارة، منبعثة من قلب يمور في الاشتياق، ويهدهده بأنامل عمياء تتحسس صنمها لتستيقن وجوده، يهز سلطان رأسه يمنة ويسرة، يهزه لحن الشجن، يشعر كأنه عصفور، حبس لسنين، ثم أطلق صراحه في التو والحال، تلمع عين جلال حين يرى طيف سلوى يتخايل أمام عينيه، تتراقص كغزالة برية، تبتسم فتبدو إشراقة غمازتها وكأنها طغت بحسنها على القمر الشاحب، تدمع عينا سلطان فجأة، يحس أنه فَقَد عزيزًا لا يعلمه، كأن قلبه طعن بسيف النوى

t.me/qurssan

منذ لحظات وجرحه في مرحلة النزيف، تمايل الناي فتلوت سلوى كأفعى، تتقلب على جمر الرغبة فيتطاير شرر الافتتان من عيني جلال، صوته يخفت قليلًا، وروحه تذوب، سلوى تتلاشى كالسراب، يهبط الناي حتى يرتطم بالقاع، يموت طيف سلوى فيرمي جلال رأسه على المسند، يزفر بحرارة:

- ملعون الحب، مثل كِرشة البقرة، ريحتها نتنتة وطعمها حلو.

يحك سلطان رأسه متفكرًا في جملة جلال، يصفق بيديه:

- حب... حب... حب... الحب مثل الخبيزة.

يضحك جلال، ثم يطعم الحجر بالمعسل، يرص النار فوقه، ويشد نفسًا طويلًا، يقول لسلطان:

- ألا صحيح يا سلطان، حبيت قبل كده؟

- حب... حب... حب... آه

- حبيت من يا ترى؟

- حبيت أمي.

تظل الضحكة «متبغددة» على شفتي جلال، يقول له:

- ما رأيك في سلوى يا سلطان؟

«تتبلم» ملامح سلطان كأن سهم الله نزل عليه:

- أي سلوى؟

- التي طلقها زوجها، وطفش.

- آه، دي مقطوعة من شجرة، بعد موت أبوها حماده المقشف.

t.me/qurssan

- طيب وما رأيك فيها؟

- شمال.

بُهت وجه جلال، تغزوه سحابة هم داكنة، فقأ سلطان قلب جلال وأفقده القدرة على التمييز بين الألوان دون قصد، أحس بإهانة صوبت إليه، لم يستطع ردها، ف «من يُرفع عنه قلم السماوات يُحظر على قفاه قلم الأرض» دومًا ما يردد جلال هذا حتى لا ينساه، وتمتد يده على سلطان كأهل البلد طيلة الوقت، يراه صفيًا فوق البشر، سعيدًا في دنيا الشقاء، متجردًا في وقت كثرت فيه الملابس فوق الأبدان.

يقول سلطان بسذاجة:

- أنت زعلت؟

- لم الزعل؟

- ملامحك تصرح بهذا.

يبتسم له جلال، يربت على كتفه بحنو:

- أنا بخير.

يطرق بعدها صامتًا لا يلوى على الحديث، يقترب منه سلطان، ويقبل رأسه وجبهته وجبينه، ويقول بصوت مهموم:

- شمال يعني حلوة يا سي جلال.

يعطيه سلطان ظهره ويبدأ في هبوط السلم الطيني، تعود الابتسامة لتنساب بين ضفتي جلال من جديد، وينام تحت وميض النجوم.

t.me/qurssan

(٤)

خرجت من القصر باكرًا، أحب رؤية الشمس في طورها العُذري، الحياء يخضب وجهها، أرقب صفاء السماء بثوبها الشفاف، قبل أن تلف رأسها بحجاب يمحق ذاتها ويواري جل جمالها، أشاهد العصافير في أسرابها يأتين برقصة رشيقة على مسرح الأفق، وطيور «أبي قردان» تتمايل في الحقول، السعادة تطغى على حواسهم، بعيدًا عن شقارف الفلاحين وطوبهم المؤلم، تبدو اللحظة الوحيدة التي أجد فيها نفسي وألمس وجودي، الأفق فوقي والأرض تحتي ومدى البصر ملك يدي، بعيدًا عن القصر والناس، في وحدتي هنا ألمس طبيعتي، أتوحد مع العالم، أشعر بالفناء فيه، وتضاؤلي في بحر اتساعه، أرمي نفسي في أحضانه وأترك له زمام أمري، فأتخلص من الوجع، حاجتي للطعام، والذاكرة... وأنام حتى يسمع العالم صوت شخيري، أو لا يسمع، فلن يغير صوت شخيري أي شيء في هذا العالم النمطي.

أقرر العودة مرة أخرى للقصر قبل أن يستيقظ الباشا أو ابنته المعشوقة، ويملأ الناس الشوارع والحقول، فيقطعون عليَّ تأملي واضجاع روحي في عيون الطيور، أمشي فوق الحشائش، الطريق ضيق بين «القناية» والحقول، أصل للنهاية وأمضي على

t.me/qurssan

يسار الرشاح، يظهر برائحته المنفّرة، تقع عيني على حشد من الناس أمام بيت «أم همام»، طوبه الأبيض يميزه عن سائر دور القرية الطينية، يقف «نيازي» يزبد ويصيح بعلو صوته، الغضب يتجلى واضحًا على آي وجهه، تهادى إلى أذني صوت همام:

- كل زعيقك لأجل إني نسيت أرجع لك المنقرة؟

- من ينسى لا يطلب يا بن الرجل الواطي.

يلسعه «حمام» توأم همام على قفاه بشدة:

- تصدق أنت اللي واطي وابن....

تتصلب عينا نيازي في مآقيها، يبدو على وجهه صدمة، جعلته يتجمد للحظات، ثم استدار لحمام:

- عفارم عليك يا عيل.

ينزل عليه بصفعة خشنة، يسقط حمام على الأرض، يستدير نيازي لهمام، يكور قبضة يده، ويصوبها لجبينه بشدة، فيترنح ويكاد يسقط بجوار أخيه، يقوم حمام مرة أخرى، يحاول الهجوم على نيازي فيتفاداه ويضربه بركبته في بطنه، ويمسك وجهه بأنامله المفلطحة ويدفعه فيقع من جديد، ثم يقترب من همام الدائخ ويضربه «روسية» جعلته يرى العالم «طشاشًا» في هذه اللحظة، فتطلق «خدوجة» العنان لحنجرتها فيتوافد الناس لنجدة ولديها، وأنا أرقبهم من البر الثاني لـ «ريّاح»، كان نيازي يتجاوز العشرين والولدين على مشارفها، أتى بعض الناس،

t.me/qurssan

يحاولون الإمساك بنيازي لكنه ينقض عليهم كالثور الهائج، ينطح، يصفع، يلكم، ويركل دون رأفة، تشعر خدوجة بالذعر لمصير ولديها، يمسك بهما سويًا، ويضرب رأسيهما في بعضهما كأنه «يطقش» بيضتين، يدوخا من جديد، فتقترب خدوجة من نيازي دون أن يراها، يلتفت، يد تمتد بين ساقيه وتعتصرُ بقسوة، تتسع عينا نيازي ويغشاه ألم لا يطاق، لا يستطيع تحريك يديه أو دفعها عنه، تنظر له خدوجة ناقمة والحنق يملأ صدرها، على ملامحها تصميم محمل بالغل نحو نيازي، تجز على أسنانها وتقول:

- شوفت المرأة ممكن تعمل إيه لو حست بالخطر؟

تضغط عليه أكثر، يحس بأنفاسه تتقطع ورأسه يدور، على وشك السقوط، يصير وجهه بلون الدم، يحس باقتراب نهايته، تفلته خدوجة من بين يديها فجأة، فيسقط مغشيًا عليه، تبصق على وجهه وتقول:

- كلب.

مرة أخرى يذكروني بماهيتي، لا أريد أن ينضم عضو جديد يكمل مثلثنا، تصل زوجة نيازي التي تصغره ببضع سنين، تصرخ وتولول، تتحسس وجهه بأصابعها، وتحاول إفاقته، لا يستجيب، فيزدداد صراخها وتنتحب، وتشق هدومها:

- نيازي مات.

t.me/qurssan

يقترب منه أحد إخوة نيازي، يضع أذنه على قلبه، فيسمع نبضًا خافتًا، يحمله ويقول لزوجة أخيه وباقي إخوته:

- ما زال حيًا، اتبعوني.

صاروا خلفه عدا واحد، نظر لخدوجة التي خرجت من بيتها شامخة، بعد أن وارت ولديها بالداخل حتى لا يتعرضا للأذى، قال لها الشاب:

- عليَّ الحرام من ديني لأقطع نسلك من الأرض لو نيازي حصل له حاجة.

تنظر له خدوجة بحنق، وترسم على وجهها ضحكة شامتة، تقول بصوت مخيف:

- لو دكر فكر تعملها، وأنا أعمل فيك مثل أخوك.

ضحكت من رد خدوجة، بينما ذهب الشاب وقفاه «يقمر» عيشًا، رجعت للقصر بعدما شاهدت كل شيء عن قرب والرشاح يفصل بين عالمين، لم أكن لأحاول الحيلولة بين المتعاركين، ما قضى به الله حادث، وأنا لا شأن لي بإرادة الرب، التمرد حماقة وفعل شيطاني، وأنا لا أود شيئًا سوى الرقاد دون يقظة، كالكلاب.

***

وصل سلطان المجذوب راكضًا إلى المقهى، يكاد يلهث من فرط التعب:

- الحقوا يا أهل البلد.

t.me/qurssan

يصمت، فينظر له الجالسون بشيء من الترقب، يقول له همام أبو راخية، بعد أن أطال السكوت:

- ما لك يا ولا؟ ما تنطق يا حلوف أنت.

يضع سلطان راحته على صدره، يقول بصوت متهدج:

- عم فرج.

ينتفض عوض من على المطبة الطينية مذعورًا، ويسأل بعجلة:

- ما له، ما له أبويَ؟

- سرح الجماعة بعد ما أعطاها قرشين.

هجم عوض على سلطان، ومسك بتلابيبه:

- قرشين كام؟ ومن أين عرفت؟... انطق يا حلوف.

يقوم عزت ويمسك كتف أخيه، يحاول تهدئته حتى يستطيع فهم ما حدث، الجالسون على المقهى يكتمون ضحكات تعربد في صدورهم، يقول سلطان:

- أبوك رآني وبلغني آجي أقول قُدام الناس إنه طلق الولية الملبن مراته، وأعطاني تفاحة أمريكاني، حلاوة على تعبي.

ركل عوض سلطان ناقمًا، يتوجع المجذوب ويطلق أنينًا خافتًا كمواء قط، يؤنبه عزت وينظر له غاضبًا، ثم يقرفص بجوار سلطان، يربت على كتفه سائلًا:

- قل لي يا سلطان، الفاجرة زوجة أبي خدت كام منه؟

t.me/qurssan

- وأنا إيش درّاني يعني، روح اسأله، ولا خائف أصل يضربك كفين.

يزجره عزت بيده، ويقول بغيظ:

- قم يا بن الحلوف غور من قدامي، داهية تأخذك أنت وسلسالك كله.

يقوم سلطان راكضًا، يمسك عوض بيد أخيه ليجلسا سويًا على المصطبة الطينية من جديد، المقهى معروش بالخشب، فوقه قش ليواجه المطر، مبنية من الطوب النيء، يطلب عوض من «القهوجي» تغيير حجر المعسل فيفعل، ينظر عزت للعيون المسلطة عليهما، يفكر سريعًا، ثم يقول:

- صحيح يا إخوانا، اسم النبي حارسه نيازي وصلت حالته لأي درجة؟

يجيب زغلول العريان:

- عرفنا إن المدفع ما زال يضرب القذائف.

فيقول عزت باسمًا:

- طيب الحمد لله إنه لم يُعطل.

يضحك بعض الجالسين، فيقول همام أبو راخية:

- لكن الست خدوجة دي دكر وبمئة رجل.

يستفسر عزت ضاحكًا:

- لمَ؟

t.me/qurssan

فيجيب زغلول العريان:

- لأنها جابت من الآخر، عكشته من منطقة خطر.

يدخل سعيد أبو خطاب في الحوار، يشد نفسًا طويلًا من الجوزة، ويقول:

- كان مستقبله هيضيع.

فيقول عوض ليدلي بدلوه هو الآخر:

- يمكن كان يبطل افترى، ويعرف إن الله حق.

يعدل أبو راخية ياقة جلبابه، يقول:

- صدق اللي قال والله: «اللي ميقدرش عليه الرَّجل بعضلاته، تقدر عليه الست بدماغها».

يسأل عوض ضاحكًا:

- وده مين اللي قال كده يا همام؟

يجيبه بسذاجة:

- أمي.

يضحك الجميع، فيقطب أبو راخية ويشمر منخاره، فيقول عزت ضاربًا على مرفقه ضاحكًا:

- ربنا يحفظها لك.

***

يتوقف سلطان للحظات ليأخذ أنفاسه، التعب ينهكه من كثرة الركض، يحني ظهره ويستند براحتيه على ركبتيه، العرق يهبط

t.me/qurssan

من مسامه بغزارة، يسمع صوت صرير باب يُفتح على مقربة منه، يرفع رأسه مسرعًا، فتقع عيناه على إيستر، تضع منديلًا على شعرها البهي، وترتدي جلبابًا من الحرير، يغط في النوم تحت مغناطيس الخلخال الذي يزين قدمها اليسرى، يشهق سلطان ويُصلب نظره على جسمها، تمنحه ظهرها للحظة فينبهر بجسدها، تستدير، وتشير إليه بسبابتها، ينظر يمنة ويسرة لعل هناك أحد على الطريق، تشير إليه من جديد، فيتأكد أنه المراد، يقترب، ويسير خلف رغباته، العقل متوار في سجنه الرهيب منذ سنين، تشده من جلبابه المهترئ، وتغلق الباب.

يخبرها حين يتبادلا النظرات:

- عطشان.

تذهب، وتعود إليه بكوب زجاجي يبرق فيه الماء كالفضة، يشربها كلها على مرة واحدة، يمسح فمه بكم جلبابه، تأخذ منه الكوب وتضعه على نضد بجوارها، تسرق منه قبلة خاطفة، يشعر سلطان بلذة غريبة لم يجربها من قبل:

- تريد المزيد؟

يومئ برأسه ويصفق بيديه فرحًا، تتركه للحظات ثم تعود بكرباج سوداني، تضعه في يد سلطان، تقول له:

- اضربني أولًا.

- لا يجوز، فالمجاذيب يُضربون فقط.

t.me/qurssan

تحرك أناملها على شفتيه فيسبل جفنيه، تنزل على ذقنه وتتفنج على رقبته، يشعر بالذوبان، ويسقط الكرباج من يده، فتسحب أناملها فجأة، فيفيق من غفوته منتفضًا:

- اضربني أولًا.

أنفاسه سريعة، وجسمه متوتر، يهبط على الأرض ويأخذ الكرباج، ثم ينزل على جسمها بضربات عنيفة، يضحك بشكل هيستيري، تشعر إيستر بانتشاء حُرمت منه طويلًا في أحضان عزرا، تهم على سلطان، تجرده من ثوبه القذر، فترى جسمه الوسخ، تهم به، وسلطان مغيب، وعائش في عالم ملون بخضرة البرسيم وزرقة السماء وضحكة أمه الراحلة، يهذي، يبتسم، يدمع، يغني، حتى يصرخ ذاهلًا وترتمي إيستر بجانبه لاهثة من فرط الارتواء، يشعر سلطان بجفاف ريقه:

- عطشان.

تقوم إيستر منتشية، تملأ نفس الكوب، وتعود به مرة أخرى، يشربه والماء يتساقط من فمه، تمسك إيستر بالجلباب وترميه له حتى يرتديه، يضعه على جسمه، فتقول له:

- حبيت؟

يتنطط سلطان كالقرد، ويقول صارخًا من الفرحة:

- قشطة... مهلبية... كعك بسكر.

- تذوقه ثانية؟

t.me/qurssan

- يا ريت ومقام سيدنا النبي.

- بشرط

- خدامك.

- ما يحدث هنا سر بيننا.

يهز رأسه موافقًا، تقترب منه وتصفعه على خده بقوة، يضحك لها ويلعب حاجبيه، تمنحه يدها التي نزلت على خده:

- قبّلها.

يلثمها، تسحبها منه وتشده من ياقة جلبابه، تفتح الباب وتقول له بصرامة:

- غور.

يخرج وتغلق الباب، ثم تخطو نحو النضد، تحمل الكوب وتفتح الباب، ترميه على حجارة بجوار البيت، تسمع صوت الارتطام، يتناثر لقطع من الزجاج، تغلق الباب وتزفر في راحة:

- الآن تخلصت من النجاسة.

***

صوت صراخ طفل يعوي في أذنها، تستيقظ فزعة، العرق يرشح من مسامها، وأنفاسها تعلو وتهبط من القلق، تحس أن شيئًا ما انتزع من قلبها، تقوم وتتحسس الجدران المتشققة بحذر، تصل للركن الأيمن من الغرفة، تنزل على ركبتيها وتمسك بإحدى القُلل وتشرب، فيتسلل الماء إلى نهديها النافرين، تعود مستعيذة

t.me/qurssan

من الشيطان، تقرأ آية الكرسي حتى تتخلص من الوساوس، تغمض عينيها، صورة رضيع يقضم من نهد امرأة، طيف يتخايل أمام نظرها، وبكاء ينفذ إلى آذانها كالرصاص، ترتعد، ويغشاها الهلع، تفرك عينيها حتى تتخلص من المطاردة، تفتح جفنيها مرة أخرى، تجده بابتسامة شاحبة، ينظر لها لائمًا، تبكي وتشعر بالاختناق، الصوت يتعالى، والابتسامة تتحول لضحكة ساخرة، قهقهات، تصرخ وتركض في الظلام، يرتطم إصبع قدمها الصغير بعقب الباب، تأن في صمت، وتتابع المسير، تفتح باب الدار، وتجلس أمام عتبتها، حتى يبزغ الفجر، فتأخذ نفسًا عميقًا، تمر امرأة من أمامها، تعرف ملامحها جيدًا:

- العواف عليك يا سلوى.

- الله يعافيك يا أم جلال.

***

t.me/qurssan

(٥)

يصل سلطان لأطراف القرية، الجو موحش، والظلام يكتنف المكان، المقابر تبدو في داخله كأشباح مخيفة، لا أحد يستطيع المرور من هنا في هذا الوقت المتأخر، أساطير عديدة نُسجت عن عبث الجن بالمارين، وأناس قد أُريقت دماؤهم حتى أحيلوا جثثًا حين المرور من هذا المكان، وحده سلطان الذي يأتي دون خوف، حين يغمره السرور وحين يشح منه ويستحيل رمادًا، الاعتياد لا يناسب إلا الاعتياد، واللحظات الشاذة في الحياة لا بد وأن تُعاش في أماكن غريبة، هكذا كانت تقوده خطواته دون تفكير، ربما التفكير يعيق بعض الأمور، يمنع من الاستغراق في لحظة الانتشاء، يقيد الخيال حين إقدامه على مغامرة وعرة، التفكير ممل في كثير من الأحيان، وقد تجرد سلطان من هذا الشيطان وصارت حياته بها الكثير من الغرائب.

دخل المقابر، يستشعر لفح أنفاس تقترب منه، دغدغة تسري في مسامه، يتقافز ويصفق فرحًا، تهزه نشوة الحبور، الموتى يسمعون دون ثرثرة، وهو ميت خارج هذا المكان، يذهب لقبر أمه، مستدلًا عليه بغريزته التي لا تخطئ، يجلس على الأرض الممتلئة بالحصى، تنغزه، فيضحك، يتذكر غزوته منذ ساعات، يختلط

t.me/qurssan

الألم باللذة، يخبر أمه أنه ارتشف خمرًا دون شرب، وأكل اللحم دون أن يشبع، يسألها:

- هو أنتِ وأبي لعبتوا استغماية قبل ما أنا آجي؟

ينفي التهمة عن أمه، ثم يتذكر فجأة، أمه تغطي عينيها بمرفقها وأبيه يعبث بها، يقودها في متاهاته دون تمرد منها، تسلم نفسها له بمحض إرادتها، يسرق عمرها ويرميها على قارعة الطريق، يدمع حين يتذكر هيئتها، تنحل مع الأيام، تمنحه الفُتات الملقى لها من الناس وتترك نفسها لذئب الجوع يتحرش بها... يستمر الشريط في الدوران، بشرة جافة، عظام بارزة، سعال دائم، يمتزج بالدم بعد فترة، تجف، وتتداعى كجدران الدار الهشة، يمسك يدها حين أغمضت عينيها، يداعبها لا تتحرك، يخاطبها فلا يسمع إلا الصدى، يهزها فتسقط على الأرض، الصراصير تبتعد في ذعر، فيشعر بحرقة تتشظى في صدره... يتجمع الناس حوله، يخبره أحدهم بانسلاخ الروحين، فيبكي، يبكي طويلًا، حتى يرى وجه أبيه في الجنازة، ذهب إليه صارخًا، عروقه نافرة من الغضب، وصوته كالصفير، يطلب منه الرحيل، يسبه أمام المشيعين، فيدفعه بقسوة، يتقلب جسم سلطان النحيل حتى ترتطم رأسه بجدار قبر خرساني، ينزف الدم منه، ويتيه في الظلمات.

t.me/qurssan

يفيق فلا يبصر وجه أبيه، حينها لم يعد سلطانًا، بل صار المجذوب.

يقوم سلطان ويطوف بين القبور، يمسح بيده على كل قبر، ثم يملس على صدره كأنه ينشد البركة، يقرفص ويتقافز كديك بلدي، يعوي كذئب، وينهق كحمار، يتقلب على الأرض كجرو صغير، ثم يجرح ذراعه بشوك الصبار، يمصمص الدم مستمتعًا، ثم يطلق من أنفه كركرة متمردة، يومض في ذهنه شيء ما، فيركض عائدًا لقبر أمه، جسمه يرتعش من الخوف، يرتمي بجوار القبر، يبكي:

- خوديني في حضنك يا أمه.... وحشتيني قوي.

***

يقف جلال بـ «فانلة» بيضاء و«كلسون» زبدي اللون، يشمره حتى ركبتيه وتغوص أقدامه في الوحل، المياه تصل حتى منتصف «سمّانته»، يساعد الفلاحين الذين استأجرهم لـ «شتل» الأرز، يرفع عينيه ويمسح العرق عن جبهته، يلمح على مرمى البصر، رجال يحملون الفؤوس ونساء يركضن خلفهن، ذاهبين لأطراف القرية من جهة دار عزرا، بوم الشؤم ينعق في صدره، فيخرج راكضًا من الغيط، ملابسه متسخة بالوحل، يلقي بجسمه في «النصبة»، الساقية تمده بالماء، يغتسل في دقيقتين، ويمسح أقدامه في الحشائش الجافة، يلبس «المركوب» ويلحق بعد دقائق بآخر

t.me/qurssan

الواصلين للمكان الذي خشى أن يذهبوا إليه، رآهم يحاصرون دار عزرا، تتجلى في عيونهم عفاريت الشر، يرى جلال أحدهم خارجًا بعزرا، يسحبه من ياقة قميصه ويدفعه أمام الناس بقسوة، يقول:

- ملعون من نسل ملاعين.

يسأل عزرا بدمع حارق:

- ماذا فعلت لكل هذا؟

يجيب عاطف أبو طاقية:

- إخواتك . الله يلعنهم . نهبوا الحق من أصحابه وسرقوا الأرض اللي ربنا رفع منها نبيه إليه.

يرد عزرا بانكسار:

- ليس لي شأن بهم، وإن كان على نبيكم، فقد سبقه نبينا إلى أرض الميعاد.

يضربه الشاب بالقلم على قفاه، يذهل عزرا من الحادث ويشعر بروحه تذبح بسكين ثلم، فهرع جلال نحو الشاب ودفعه بشدة فترنح وخذلته أقدامه، همهم البعض مستهجنين سلوك جلال، يقول عزرا بصوت مهموم:

- ما ذنبي فيما حدث؟

يجيب زغلول العريان:

- ذنبك إنك منهم.

فيعترض عزرا ملوحًا بسبابته:

t.me/qurssan

أنا من بطن الأرض اللي طرحتني.

فيقول عاطف أبو طاقية باصقًا على الأرض:

- ستخرج منها حتى تتطهر الأرض من الدنس.

يشعر عزرا بالمذلة، يقول:

- إلى أين؟... لم أعرف لي بلدًا إلا هنا.

ينظر له عاطف أبو طاقية ساخرًا:

- طول العمر عايشين في الشتات، مجتش على هذه المرة.

تخرج إيستر في هذه اللحظة بعدما سترت كل جسمها، واستجمعت بعض الشجاعة، الهلع كان يلتهمها منذ لحظات، تقول بعلو صوتها:

- لن يستطيع أي شنب إخراجنا من دارنا وبلدتنا.

يظهر سلطان في هذه اللحظة. ترقص روحه حين تقع عيناه على إيستر، يدفعها عوض الذي ظهر في هذه اللحظة:

- اخرسي يا ولية.

يزحف نحوها عزرا ويضمها لصدره، يريد أن يستندا على بعضهما البعض ليستمدا القوة من اتحادهما، يقول جلال لعوض غاضبًا:

- لولا فرق السن ومَعزّة أبوك كنت قسمتك نصفين.

صمت عوض ولم يعقب، يقول جلال بصوت جهوري:

- ماذا حدث لكم يا أهل البلد؟! عم عزرا عايش بيننا منذ وعيت

t.me/qurssan

عيني على الحياة، الرجل لم نرَ منه عيبًا أو نمسك عليه فضيحة، وحتى لو عمل فهو مثله مثلنا، هذه أرضه، الأرض ليست حكرًا يا أهل البلد على مِلة ولا دين ولا لون ولا عِرق، الأرض لمن وُلِد عليها وعاش حياته فيها، وإلا يبقى عليه العوض ومنه العوض، وكل أغلبية في مكان تطرد الأقلية اللي فيه، ربنا لا يرضى بهذا.

يرد الحاج شحاتة عليه متبرمًا:

- يلعن أم التعليم اللي لحس مخك يا بن العمدة.

يقول له جلال بلهجة جافة:

- ترضى حد يأخذ دارك ويطردك منها؟

يجيب شحاتة حازمًا:

- أنا أقطع خبر أي حد يحاول يقرب شبر حتى من الدار من غير إذني.

- خلاص، ما لا ترضاه على نفسك لا ترضاه على الناس.

فيتدخل عوض ساخطًا:

- ناس؟... هما دول ناس؟... ربنا لعنهم في القرآن ومسخهم لقرود، دول أحفاد الخنازير، والخنزير أنجس مخلوق ربنا خلقه على الأرض.

يقهقه جلال بشكل هيستيري، يتعجب الواقفون، يقول:

- ربنا لا يخلق النجاسة يا عوض... والغريب إننا عبيد وأنجاس وولاد ستين هرمة عند ربهم برضه.

t.me/qurssan

يقول زغلول العريان:

- استغفر ربك يا جلال يا بني، أنت هتكفر ولا إيه؟

في هذه اللحظة انتهى سلطان من ملأ زجاجة بلاستيكية ببوله بعدما توارى خلف شجرة ضخمة، يعود إلى الناس المتجمهرة، يقول جلال وهو يمد يده لعزرا:

- قوم يا عم عزرا حقك عليَّ.

ثم نظر نحو الناس:

- ربنا أمرنا نعطف على الحيوان، فما بالكم الإنسان؟! واحد من دمنا وارتوى من نيلنا وأكل من «غُموس» الأرض، أهله كلهم مدفونين هنا، يبقى يمشي يروح فين؟! دي الأرض اللي الواحد مش ميتله فيها بني آدمين تبقى بور وعمرها أبدًا ما تكون وطن لحد.

يسند جلال عزرا حتى يدخل داره برفقة إيستر، ويغلق الباب خلفهما، ثم يقول للواقفين:

- يلا بالسلامة، وربنا ما يقطع لكم عادة.

ينصرف الناس، على وجوههم ردود أفعال متناقضة، يظل عوض واقفًا للحظات حتى يفيق على صوت سلطان:

- عوض.

- عاوز إيه يا جعِر؟

يرش البول على وجه عوض فيصرخ ويغمض عينيه، سلطان يرميه بغيظ ويضحك في حبور لرؤيته على هذه الشاكلة، ويقول:

t.me/qurssan

- خد يا عِرة الرجال، لأجل تبقى تتشطر على الحريم من تاني.

يحاول عوض الهروب منه وسلطان يطارده، يضحك جلال ويقول في نفسه:

- عجيبة يا بلد، المجنون عاقل فيكِ، والعاقل ركبه شيطان الجنون.

***

«غدير» سيدتي ومولاتي التي تسحبني من الطوق المعلق في رقبتي، تمشي بي في القصر وتمن علي بضحكاتها، تأتي لي باللبن، فأشربه بنهم، تجعلني آكل على السجادة حين تأكل فوق كرسيها الوثير، أحبها بطبيعتي الجديدة، واشعر بذوباني التام عند انسياقي خلفها، لا أريد فعل شيء سوى الاستجابة لمجريات الأمور، كان أبي كلبًا وولدتُ على صورته، محاولة التغيير ستجعلني مسخًا مثيرًا للاشمئزاز والقرف، انتشلتني من الضياع وحمتني من الأذى ومن سوط والدها، ضربني في مرة على ظهري عندما وجدني على أربع فأخبرته غدير بدلال أنني أُخصها، لا تحب التدخل في شيء تمتلكه، وقد عشقتُ امتلاكها لي، شيء بداخلي يجعلني أستجيب لها، قد يكون ما سمعته من قبل صحيحًا، أرواح في عالم الذر شهدت بالعبودية، أظن أنها كانت ربة حينها وسجدت روحي في محرابها، والآن تتجسد على هيئة تلائم الزمان، وتستعبدني من جديد، هذه المرة أحس بالسعادة،

t.me/qurssan

بمتعة كبيرة تتدفق في حواسي، رؤيتها في جل يومي، ابتسامتها حين ترضى عني، غمازتها حين تبرق كقطعة ماس، خطواتها وهي تضرب على طبلتي دقات السرور، فاللكلاب حظوظ، فلو كنت فلاحًا حتى اللحظة ما ظفرت بلمسة من يديها، لكنني الآن أظفر بقبلات على قدميها ويديها حين آتي بحركات تذهلها وتبعث في نفسها الفرحة، تصفق لي وتملس على خصلات شعري في حنو، تخبرني بصوتها الناعم:

- جود بوي.

تيقنت وقتها أن الكلاب يرمى إليهم بالعظم، أما الفلاحون فمحرومون من اللحم.

***

الدخان يغشى المقهى ويخلق جوًا ضبابيًا، الناس يتسامرون ويطلقون النكات فتنفرج الأفواه وتنبعث منها أصوات كالخوار، يأتي سلطان مصفقًا ويتوقف أمامهم، يمشي ببطء، ويحاول إحناء ظهره قليلًا، يأخذ طاقية من فوق أحد الرؤوس الجالسة، يضعها على رأسه ويواصل الفقرة الضاحكة، يستبد الفضول بأحد الجالسين:

- الله... ما لك يا ولد يا سلطان؟

يضع سلطان يده على صدره ويأخذ وضع الركوع، يكح بشدة، ويسند راحتيه على ركبتيه:

t.me/qurssan

- آه يا رُكبي، شحُت منك «البهاريز»، وبقيتِ مثل عود الحطب الناشف.

يضحكون فيتقافز سلطان كـ «أبي فصادة»، ثم يجلس مربعًا على الأرض:

- ظهري شاخ يا أولاد، ومع ذلك أموت في النسوان، وفي الفخذة الضاني.

يقوم عوض غاضبًا، يحاول طرده خارج المقهى، ما زال يشعر بالكراهية الدفينة ناحية سلطان، بعدما أغرق وجهه بالبول، حاول كثيرًا الاعتداء عليه، لكن الناس يخلصونه منه، لولا الجنون لضاقت عليه الدائرة، يعوج سلطان فمه ويقول:

- بدل ما تستقوى عليَّ، روح شوف أبوك.

يكور عوض قبضته ويمسك سلطان من كتفه، يجز على أسنانه ويسأله بغضب:

ما له يا بوز الإخص؟

- دخل داره بواحدة مثل العروسة الحلاوة.

تحمر عينا عوض فيهز سلطان بعنف:

- عروسة إيه يا جلنف، جاي تهزر مع عوض أبو رأسين؟

يرد سلطان بوجل:

- طيب حاسب أصل يطلع لك قرون.

يقهقه الجميع من الطريقة التي قالها بها سلطان، يهم عوض

t.me/qurssan

بتسديد لكمة لأنف سلطان، يد فتية تمسك بقبضته، يقول له «عويس» صاحب المقهى:

- اتقِ الله، حد يمد يده على واحد منزوع منه العقل، ألا يوجد عندك رحمة؟ روح يا عوض، روح شوف أبوك الأول بدل ما تخرس ألسن الناس كلها.

يكظم عوض غيظه، يود لو بصق في وجه عويس، لكنه يخشى مغبة الفعل، لن يستطيع العودة، لذة السمر على المقهى سيحرم منها، مقهى وحيد يجد فيه نفسه بين الناس، فيمشي تاركًا المقهى بعدما نفح عويس حساب المشاريب التي طفحها، يضحك الجميع ويتندرون على فرج، يقول عويس معجبًا بفرج:

- دي الرجال ولا بلاش، يجدد شبابه أول بأول بدل ما يجيله له جفاف مثل عويس.

***

تخرج سلوى بعد آذان الفجر، تصطحب طفلها الصغير في يديها، جارتها التي تتركه معها مسافرة عند أقاربها في الصعيد، مضطرة للسفر اليوم، المال نفد والجوع بدأ يقرص بطنها ومعدة صغيرها، تشعر بخوف شديد من هذه الخطوة الجريئة، سيراها طفلها الصغير تمد يدها للناس، تطلب الإحسان من كل من هب ودب، طأطأة رأسها خشية تلاقي نظراتها مع المحسنين، سقوطها في عينيه، لكن المعدة حين تكون خاوية لا تدع مجالًا للعقل كي يعمل بشكل طبيعي، الغريزة تلح عليها، وبكاء طفلها يفت في

t.me/qurssan

عضدها، تتجرد من كل دروعها، وتترك جسمها عرضة للسهام، لا تريد تكرار الجريمة مرتين.

تقترب من المحطة، العربات «الكارو» تمضي على الطريق، نهيق حمار يتألم من الضربات الباطشة المنهالة عليه من صاحبه، امرأة تسحب جاموستين وتمضي بهما نحو «الغيط» تقول سلوى لبائع الفول:

- أربع شُقق فول يا عم بنداري.

تمنحه المال، يبتسم ويشير بسبابته نحو عينيه، تسرح سلوى قليلًا، نحيب طفل يفح في أذنيها، تتذكر ضحكته حين خروجه لهذا العالم، لم تسمع صوت صراخه إلا حين تخلصت منه، يخرجها من استغراقها صوت بنداري:

- الفول يا بنتي.

تأخذه منه وتنظر بجوارها فلا تجد طفلها، تسأل بنداري مذعورة:

- أين الطفل؟

- لم أرَ معك أطفالًا.

تمسك الفول في يدها، تجول بنظرها لتمشط المكان، لا تعثر عليه، تسمع صفير قطار يقترب، صريخ طفل يداهم أذنها، القطار يزأر فاتحًا فمه الموحش، يقع بصرها على طفلها، بينه وبين قضبان القطار خطوتين، تصرخ:

- إسلام.

t.me/qurssan

يسمعها الطفل، يكركر ضاحكًا، يظن أنها تمازحه، يواصل لعبته الساذجة، تركض نحوه، القطار يقترب، يضع قدميه بين القضبان، تتصلب أقدام سلوى مكانها، تذهل، يكشف القطار عن أنيابه، يغرزها في جسم الطفل الضئيل، تصرخ بكل ما أوتيت من قوة، وتسقط مغشية عليها، والقطار يواصل مهمته البشعة، وينام مستريح الضمير.

t.me/qurssan

(٦)

يدق شوقي على الباب، يظل واقفًا لدقيقة كاملة، في أواخر الأربعينيات يحاول اللحاق بعزرا الخمسيني، ينتابه اليأس، يقرر العودة لداره، يدير ظهره، فيُفتح الباب، يسمع نداء إيستر عليه، يلتفت لها باسمًا، يسألها:

- عزرا موجود؟

تومئ برأسها بملامح باردة:

- آه قاعد في المندرة.

يدخل شوقي من الباب، ويجنح نحو اليمين ليدخل المندرة، يجد عزرا ممددًا على الكنبة، يتكأ بمرفقه على وسادة من القش، يرين على وجهه الحزن، ويخيم عليه غيم يعكر صفو أيامه، لم يعتدل حين دخل شوقي، تائه في ملكوت آخر بعيدًا عن بؤس واقعه، يحلق معه ليهرب من أحزانه، يتمنى نسيان اللحظات الرهيبة التي عاشها، انكساره من الخلق، نظرة التشفي في عيون البعض، انسحاق ذاته، شعوره بالعجز، نظرته في عين إيستر حين استندا على بعضهما، تحت أقدام الخلق، لا يستطيع حمايتها، تصدع الحائط.

يفيقه شوقي بضربة على كتفه، ينظر له مرتعدًا:

t.me/qurssan

- من؟... أخفتني يا شوقي يا أخي؟

- ما عاش ولا كان اللي يخوفك.

يرد عزرا عابثًا وقد كسى صوته ثوب الانكسار:

- عاش وكان يا شوقي.

يربت شوقي على كتفه:

- سحابة صيف وراحت، لا تحزن، وبعدين حظهم إني مكنتش موجود.

يغتصب عزرا من ثغره ابتسامة باهتة، يقول:

- تعرف ما المشكلة يا شوقي؟

ينظر له شوقي بفضول، يشير بأنامله لعزرا كي يواصل، فيردف عزرا:

- إنني مهما عشت في البلد غريب، ومهما قدمت الخير أحصد الشر.

يقول شوقي له مهدئًا:

- صلّ على رسول الله بس يا أخويا، البلد بلدك وناسها ناسك.

تدمع عينا عزرا، يرد بصوت مخنوق من الهم:

- البلد التي لا أقدر على شراء قيراط واحد فيها ليست بلدي، هي لا تمنع ذلك، لكنني أخاف من الامتلاك، أشعر طوال الوقت أنني مجرد من حقي هنا، في لحظة مزاجية قد تنتاب الحاكم أو الناس في أمر ليس لي ذنب فيه قد يتم طردي، كلنا يفعل الخطيئة، لكن لا أحد يحمل وزرها وينال عقابًا عليها إلا اليهودي.

t.me/qurssan

يمس الخوف قلب شوقي ويحزن على حال صاحبه، يقول:

- استهدَى بالله، شيطان ودخل بيننا، اهدأ لأجل صحتك.

يتنهد عزرا قائلًا:

- مِن وأنا طفل في البلد وبحس بكُره بين الناس، حتى في عز ما كنا عيال صغيرين، نلعب مع بعض، كان الأهالي يحذرون صغارهم مني، كأنني لعنة يخافون أن تمسهم، لو حد سرق حاجة في الشلة فأنا أول متهم، ولو اتكلمت أكون كذاب، ولو حد اعتدى عليَّ ودافعت عن نفسي يبقى أنا الشرير، كل مصيبة تحصل أنا سببها، وفي الآخر لم أجد أحدًا سواك يا شوقي، دومًا ما كنت تأتي لي بحقي منهم.

يحضنه شوقي ويطبطب على ظهره:

- اهدأ يا أخي، اهدأ يا حبيبي، ربنا عالم أنا بحبك قد إيه.

- لأجل كده كنا بنشرب في كوب واحد.

يمسك شوقي وجه عزرا بين راحتيه ويقول:

- وسنظل نشرب من نفس الكوب.

يقول عزرا بصوت بائس:

- نفسي أموت واندفن هنا، بذرتي لن تحتمل الخروج بعيدًا عن أرضها.

يبكي عزرا من جديد، نياط قلبه تكاد تتمزق من الألم، يعانقه شوقي ثانية، يقول:

t.me/qurssan

- هنموت هنا احنا الاثنين، وهنندفن في قبر واحد يا عزرا.

ينتفض عزرا، وينظر في عين صديقه متحمسًا:

- وعد؟

تولد على ثغر شوقي ابتسامة مطمئنة:

- وعد يا حبيبي.

***

تستيقظ سلوى على سرير وثير، قوائمه محلاة بماء الذهب، وخشبه من «الزان»، مطلي بألوان مبهجة، يسرح طرف عينها في الغرفة، «دولاب» من الصاج، وموقد في الركن الأيمن، عباءات سوداء، قطيفة، وفسكوز بألوان مبهرجة، ولمبات الجاز تتراص على نضدين، تبعث في الغرفة نورًا ساطعًا، «أين أنا؟» تسأل نفسها ذاهلة، تحس أنها ماتت، لكن الجنة ليست بهذه الرثاثة، تعلم أن الغرفة بها متطلبات فوق أحلامها، لكن الحكايات التي تروى لها منذ الصغر عن الجنة تبشر بشيء مختلف، قد يبدو هذا قبرًا، والغرفة ما هي إلا الروضة المؤدية للجنة، فرضية استساغتها واقتنعت بها، حتى نشرت اللحظة القاتمة ثوب الحِداد أمام عينيها، تذكرت طفلها الصغير، القطار حين ينافس القدر على جبروته، تتسارع أنفاسها، عقلها يدور كتنورة، تصرخ، فتهرع نحوها «أم جلال»، ويركض خلفها جلال، كانت سلوى ترتعش، تهذي، فتطوقها أم جلال وتأخذها بين ذراعيها:

t.me/qurssan

- قدر يا بنتي، ولا قدرة لنا على تغييره.

ينتفض بدنها وتهذي بكلمات حارقة:

- اشمعنا أنا؟

تطبطب أم جلال عليها وتقول:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، ربنا يصبرك يا بنتي.

يقف جلال أمامها جامدًا، يود معانقتها، دفنها في صدره حتى تطمئن، منحها جرعة بسيطة من السعادة، الحزن الجاثم على ملامحها يتمنى انقشاعه، ومداواة الفجيعة المتوحشة بصدرها، يظل صامتًا، حتى تترنح سلوى وتسقط على الحصيرة، يحملها ويمددها على السرير، يتحسس جسمها، الحرارة تتسلل لأصابعه، يقول بصوت متوتر:

ماء بارد، وقماشة قطن.

تهرع أمه وتملأ كوزًا من بطن الزير، تعود به، وتأتي من الدولاب بفانلة بحمّالتين وتبللها بالماء، تضعها على جبهة سلوى، يقول لها جلال:

- سأذهب لإحضار طبيب

- انتظر للصباح.

فيرد خائفًا:

- أخشى أن يفوت الأوان.

فتقول أم جلال برضا وتسليم للقضاء:

t.me/qurssan

- ما يكتبه ربنا حادث، وبعدين البلد لا يوجد بها دكتور، ولأجل تروح الزقازيق لأجل تحضر دكتور تكون خربت مالطة.

فيرد جلال بقلة حيلة:

- ما العمل إذن يا أم جلال؟

- تدعي لها، وإن شاء الله على الصبح تكون حرارتها نزلت وربنا نجاها.

يحبو الأمل على ملامحه فينظر لأعلى ويرفع يديه بقلب متضرع:

- يا رب يا أم جلال يا رب.

***

يخرج جلال من الدار، محاولًا ملأ صدره بالهواء المنعش، يود الهروب من كل الصور المؤلمة المحيطة به، يكره تخيل المستقبل، ووضع الفروض المؤدية للحزن، يرى أنه لا يدوم إلا المؤقت؛ وأن المستقبل ما هو إلا حاضر جارٍ؛ لذا يحب عيش لحظته بكل تفاصيلها، ويصنع السعادة بنفسه لنفسه، ليستحيل المؤقت لدائم، لكن هذه المرة يخشى العودة للمؤقت، المؤقت في هذه الأوقات سيكون قاتلًا، نقطة سوداء في روحه النقية، وبقعة زيت على جلبابه ناصع البياض، يقنع نفسه أن الشفقة وحدها هي التي تحركه لمد يد العون لسلوى، غارقة أنقذها من الموت، لتشعر أنها مدينة له بالحياة، فيحس بقدرته على الخلق، يسمو، يرتفع، فيتعلق بها حين يلامس النجوم.

t.me/qurssan

يعود إلى الدار، يتحسس جبهتها، لا تزال ساخنة، يشعر بالعجز، ويستمع لصوت آذان الفجر، يحس بحاجته للصلاة، منذ سنين وليس بينه وبينها عمار، فتورٌ أحسه عندما وجد نفسه يؤدي حركات روتينية دون أن يرمش قلبه، قرر حينها الانعتاق، لكنه الآن بحاجة إليه، يود الاستناد عليه، إلقاء الحمل من على كاهله ليصير خفيفًا، الخفة تعني التحليق، يتوضأ ويذهب لأداء الصلاة، قلبه يرمش من جديد، لذة تقتحمه في هذه اللحظة، يذوب في ذات تسع الكون، روح تتلاشى وتفنى في ذات تعلوها، يتنفس بعمق، ولأول مرة تدمع عيناه، ورأسه يلامس حصير المسجد المهترئ.

يجلس على المصطبة الطينية، يفرش عليها قطعة قماش من الخيش، يربع ساقيه، وينتظر ميلاد النور، الدّيكة تتصايح، وخوار البقر المستفيقة من النعاس يوحي برقة الشروق، يستمع صوت نحيب مكتوم، يدخل من باب الدار، يصل للغرفة التي تنام فيها سلوى، لا يعثر على أمه، يجد سلوى منزوية في ركن قصي من الغرفة، تضم ركبتيها إلى صدرها، النور الخافت المتسلل من الشباك ينعكس عليها فتبدو وكأنها غارقة في الضباب، كالملاك الحزين أو كطير مكسور الجناح، يثيره منظرها، ويحس روحه تهتز كدار ضربها زلزال، فيقترب منها، ويمسح بكفه دموعها، تنظر له، ينهضها فتستجيب له، تقول بعبرات مخنوقة:

- ابني مات.

t.me/qurssan

تتلاقى النظرات، الضعف القاتل يخلب لبه، قلبه يفقد القدرة على المقاومة، يعانقها بشدة، ويُنتقض الوضوء.

***

يفرش جلال ساقيه على الحشائش أمام الغيط، الجو أصيل والنسيم يهفهف على جبهته وعلى صدره، يشعر بالانتعاش، يمسك الناي، ويشرع في العزف، يعانق سلواه، تذوب في أحضانه، تأن متأوهة فيجذبها لصدره أكثر، يخفق طائر أبو قردان، نظراته توحي بالوجع، تريح سلوى رأسها على كتفه، يطوّق خصرها، يصرخ الناي، تدفعه بشدة وتتملص منه، ينتفض، تبصق في وجهه، الناي يستباح، تصفعه على جبينه، فيدمى قلبه وينزف الناي، تتركه، يتجمد، صوت خطواتها يبتعد، صبابة تحرق صدر الناي، يدمع ويختفي أبو قردان في جوف الأفق المترامي.

ينخزه العم فرج وهو على ظهر حماره، يفيق من سرحانه:

- ما لك يا جلال يا بن الغالي؟

يختلس من حزنه ضحكة مجلجلة، ويقول للعم فرج:

- أنا برضه اللي مالي، الدور والباقي على اللي عمال يتجوز كل شويه.

ينزل فرج بحركة رشيقة من على حماره، يمسك الحمار من لجامه ويربطه في وتد مدقوق بجوار الأرض، يقول:

- أنت غشيم، لو فاهم عمك فرج كنت تقول فيه مواويل.

t.me/qurssan

يقهقه جلال دون أن يستطيع الإمساك بزمام أمره:

- لِمَ يا عم الناس؟

يجيب شامخًا:

- لأن عمك فرج عمل ما لم يقدر عليه الجيش العربي كله في فلسطين.

ينظر له جلال مترقبًا، فيسأله ذاهلًا حين يظل صامتًا:

- كيف؟

يجيب فرج بثقة:

- لأن عمك فرج ركب اليهود ودلدل رجليه كمان.

- نعم... كيف؟

- أصل أنا تزوجت امرأة يهودية.

آه وبعدين؟

- صهل الحصان وخضعت المهرة.

يعاود جلال الضحك مرة ثانية، يقول:

- برضه ما علاقة هذا بفلسطين؟

يجيب فرج بنفاد صبر:

- غشيم.. يا بني اللي يركب على السرير يركب في أي حتة، وأنا كنت السيد مع اليهودية ورفعت رأس العرب من تاني.

يرد جلال مقهقهًا:

- والله خائف عليك أصل تجيب أجلك.

t.me/qurssan

يمسد فرج شاربه بسبابته زهوًا، يقول:

- الدهن في العتاقي.

- آه والسمن البلدي له تأثيره برضه.

يهز فرج رأسه غامزًا:

- بدأت تفتح مخك.

يبتسم جلال له بود:

- ربنا يديك الصحة يا عم فرج.

يشلح فرج جلبابه، ويلفها ليعقدها كذيل حصان، يقول لجلال حين يلمس على خصلات شعره:

- ربنا يبارك فيك يا بن الغالي.

يتركه فرج ويهم بنزول الغيط، يقول جلال مخاطبًا نفسه:

- لله درك يا عم فرج، لخصت الحرب في كلمتين.

t.me/qurssan

(٧)

يدخل «علي الباشا» في أحد المرات، جالسًا على الـ «أنتريه»، واضعًا ساقًا فوق أخرى، لم يكن أحد بالقصر عدا الخدم، للمرة الأولى داهمني شعور غريب، وسوس لي بالخروج للحظة خارج الدائرة، لن يراني أحد، صعدت المعراج في لحظة واحدة، وأسريت بنفسي من موضع لآخر في غمضة عين، أسندت ظهري على أحد الكراسي المطعَّمة بالذهب، رفعت رأسي كأنني أصارع الآلهة، لذة شاذة تتراقص كغانية في داخلي، أرقب تمايلها في غنج، واهتزازات ردفيها في شبق، يبقى فقط السيجار وأكون إلهًا أو ربما شيطانًا، لكنني أملك السوط الذي يجعلني فوق أعناق الرجال، وأوزع رزقهم بحسب مزاجي، لكنني سأستوصى بالنساء خيرًا.

يصرخ في وجهي، فأسقط على الأرض مذعورًا كأن مارد خرج من قمقمه ليسحلني ويقطعني أشلاء، أرتعد ويتجمد الدم في بدني، يقول الباشا:

- على «أنتريه» أسيادك يا كلب؟!

أهبط من معراجي وأعود إلى قوقعتي، أمشي على أربع وأبحث عن الطوق الذي خلعته، أريد العودة لأصلي قبل أن يجرفني التيار، أو تعصف بي الريح، ينظر لي الباشا بغضب:

- لا بد وأن تعاقب.

t.me/qurssan

انبح ليدرك ماهيتي، يشمئز مني ويبصق على وجهي، يريد استعادة كبرياءه بعدما ركلته على مؤخرته دون وعي، يمسك السوط ويهبط به على جسمي، فيزداد نباحي لعله يرأف بألمي ويتوقف، لكنه يواصل عمله دون تعب، أبحث عن ذيلي لأرفعه ليدرك أنني استسلمت، لكن ذيلي قُطع حين ولادتي، يتوقف الباشا، ويقول بصوت قاسٍ:

- والآن اخرج من قصري، أنت مطرود.

أركض نحوه وأضع رأسي قرب قدميه، أتوسل فيركلني بقسوة، يواصل:

- كنت لا تبصر والآن ترى، لقد أردت الخروج من جلدك.

مصدوم أنا، لا يدري أن إبصاري ضرب من الاستحالة، عمى دائم أعيش في ظلمته، لا سبيل للرؤية، أبكي ليشفق، جلمود صخر لا يفت فيه الموج، فأمضي مهمومًا نحو باب الخروج، تدخل غدير في هذه اللحظة، تهرع نحوي مبتسمة، تتخلل أناملها شعر رأسي وتقول:

- اشتقت إليك يا بوبي.

أستدير لأنظر للباشا، أنتظر الكلمة التي سينفخها في روحي لأحيا أو أموت:

- بره يا كلب يا بن الكلاب.

الموت يحاوطني، والعبرات تهبط من المآقي، تتعجب معبودتي فتسأله:

t.me/qurssan

- إلى أين؟

يجيب الباشا صارخًا:

- إلى الشارع الذي أتى منه.

تبدو الصدمة على ملامحها:

- هذا قبل أن يكون ملكي أنا.

- لكنه يطمع في التحرر منك.

تتصلب ملامحها، تشعر بطعنة مسددة لقلبها، تنظر لي ساخطة:

- بوبي... تريد الهروب مني؟

أطوح رأسي على الجانبين وأهبط على حذائها، أغرقه بقبلات حارة مشفوعة بالدموع، تقول لأبيها وأنا لا أزال على حالي:

- إنه ملكي، ولا أحد يستطيع أخذ شيء من يد غدير.

تشدني من طوقي وتنظر لعيني التائهة في كهفها الساحر، يبدو من احمرار عينيها مقدار الغضب الذي تخفيه، يقول الباشا:

- افعلِ ما شئتِ.

- لا ترد عليه، وتسحبني خلفها، أنبح، لكن هذه المرة، نباح من قلب مشبع بالحبور.

***

يركض سلطان في أرجاء القرية كلها، يريد أن يهده التعب، طاقة كبيرة تستقر في داخله، يود التخلص منها حتى يهدأ، الجنة

t.me/qurssan

موصدة أمامه، لم يأكل من ثمارها إلا مرة واحدة، يتمنى معاودة الكرَّة، لكن عزرا القابع في الدار لا يبرحها يقطع عليه الأماني، يقعد يوميًا من مغيب الشمس حتى وقت متأخر من الليل على كوم تراب بجوار الدار، يراقب الوضع دون جدوى، يحلم بشروق الشمس وانقشاع الظلام، تظهر إيستر كنقطة لبن في كوب شاي، تحمل طستًا على رأسها، خلخالها يلمع على ضوء القمر، تصل للطلمبة، وتثبت الطست بداخل الحوض، تمسك ذراع الطلمبة وتنشف أعصابها، ثم تبدأ في الضرب على الذراع حتى تنكسر عظامه فيلين، فينهمر الماء، ويتدفق كحبات اللؤلؤ بداخل الطست، يمشط سلطان الطريق الخالى من المارة، يتدحرج من على كوم التراب، ويمشي على أطراف أصابعه، يتسحب كنشّال، يريد اختلاس كلمة منها، إشارة تمنحه الأمل، يصير على بعد خطوتين منها، يهمس في أذنها:

- إيستر.

يسقط ذراع الطلمبة منها، وتنتفض، الذعر يملك زمام أمرها، تلتفت، فترى ضحكة ساذجة تكركر على فم سلطان، تلطشه قلمًا ناقمًا، يسخن جبينه تحت وطأة الصفعة:

- أنت إيه اللي جايبك ورايا يا مضروب؟

تتسع عينا سلطان، ويفتح ضبُّه ضاحكًا، ويقول:

- تعبان.

t.me/qurssan

تزوي ما بين حاجبيها:

- ما تتعب يا روح أمك.

ثم تشير بسبابتها على مقدمة رأسها:

- بمزاجي، وأنت مجرد عبد لمزاجي.

يعض على شفتيه، ويلعب حاجبيه قائلًا:

- هيه... هيه... سلطان عبد إيستر.

تجز إيستر على أسنانها ويلوح من وجهها الغضب:

- لما أعوزك أعرف أجيبك، غير كده، لن أجعلك تشمني حتى.

يرفع رأسه ويأخذ نفسًا طويلًا ممثلًا لحركة ساخرة، تشير إيستر له بسبابتها أن يمضي، يعطيها ظهره، فتصفعه على قفاه، وتقول آمرة:

غور.

يطلق قدميه ويركض كالثور، تحمل إيستر الطست على رأسها، وتعود لدارها، وقد أهاج ظهور سلطان لاعج شوقها المُستعر.

***

تستيقظ سلوى من النوم، صفعة مدوية، وبصقة على الوجه، تصل الدار على أنقاض روحها المتهالكة، تستند على الجدران، حتى تدخل من الباب العتيق، تزيح المزلاج بصعوبة، تدخل وترتمي على سريرها، سبات عميق غرقت فيه، ترى الظلام طاغيًا على

t.me/qurssan

الغرفة، الحِداد يحاصرها في كل مكان تخطوه، الرؤية مشوشة، وصداع يتمطى في رأسها، لفحات ساخنة تقترب من جِيدها، تكتم أنفاسها للحظات، صرخات رضيع تنبعث في أذنيها كأسياخ من نار، طيف طفلها باسمًا، ينزف فمه بالدم، لسانه يستحيل لأفعى، تبخ في وجهها سائلًا لزجًا، يتساقط اللحم فجأة وتبدو العظام متشحة بالسواد، تنطفأ عين الطفل، ويحل محلها نظرة منكسرة، يتكون الوجه من العدم، ملامح مكسوة بالصدمة، ووجع ينام على سرير الوجه، كان وجه جلال شاحبًا، مشفوطًا منه الدم، يختفي الوجه ويحل السواد، وجسم طفلها ينهمر منه الدم، الصراخ يتعالى في أذنها، تصرخ وتقوم مرتعشة، تركض كالمجنونة، وتمضي في الشوارع دون هدى. لا تدري أين تقودها خطواتها، تود الهروب من أشباحها المُطاردة، تتخلص منهم في الشارع، يختبئون منها خلف الجلابيب والعباءات، تجد نفسها أمام دار تعرفها، لا تفكر، التفكير في بعض الأمور يفسدها، تدق الباب، يقوم جلال من رقدته، لم يبارحها منذ الصباح، يفتح الباب، تراه، يتجمد مكانه، يبدو في نظراتها الوهن، ويلوح من عينيه الرانية قبس شوق، تدور رأسها، تتهاوى في أحضانه، تكاد تسقط لكنه يلحقها، يسندها ثم يحملها بين ذراعيه، ويغلق الباب.

***

t.me/qurssan

تجلس أم جلال بجوار سلوى، تمسك كسرة خبز وتمسح بها جسمها، تقرأ آية الكرسي، والمعوذتين، وتمرر الخبز عليها، تستعيذ بالله من الشيطان، وتبتهل له بأوراد كثيرة حفرتها في ذاكرتها حتى لا تضيع مع التقدم في العمر، تحاول محو الحسد، تسترخي عضلات سلوى المتشنجة، تتثاءب، فتضع أم جلال يدها على رأس سلوى، وتقرأ آية الكرسي من جديد، تتثاءب سلوى مرة أخرى، فتملس بكسرة الخبز على كتفها ثم تنادي على جلال، يأتي هرولة، من صحن الدار، تمنحه كسرة الخبز، وتوصيه قائلة:

- ارمها للكلب، وتأكد إنه أكلها... ربنا يزيح عنها شر العين ومس الشيطان.

يخرج جلال من الدار، النسيم يهفهف على جسمه، يهدأ من النار التي بداخله، ناقم على سلوى، صفعتها كسرت شيئًا ما بداخله، تعلق بانكسارها وأحب نظرة الاحتياج النابعة من عينيها، هام بعوزها وحاجتها له، أراد أن يكون حائطها الذي تستند عليه، يقيها من غوائل الزمان ومن تقلبات الدهر، لكنها شرخته بصفعة وبصقة فتهاوى واستحال الطيب المتماسك ترابًا يشتته الريح... يرى كلبًا هائمًا في الشارع، يبدو عليه الجوع، يرمي له بكسرة الخبز، يهرول نحوها، ويأكلها بنهم، يأخذ جلال نفسًا عميقًا... لكم يعشق هذه النظرة.

t.me/qurssan

يعود جلال إلى الدار، يطمئن فؤاد أمه القلق، تدعو له بالستر، يقبّل رأسها، ثم يتركها ويخرج إلى غرفته، ما زال يشعر بالإهانة، لكنه يتذكر أوبتها في لحظة حاسمة، كانت ذاته تهوي إلى الحضيض، انتشلته حين طرقت على الباب، وآبت الذات إلى عرشها بعد أن رأت نظرة العوز في عين سلوى من جديد، تعلو وتشعر بفوقيتها، ترتمي سلوى في أحضانه، فكر لوهلة تركها تسقط على الأرض، أسفل قدميه، لكن قلبه شرع في نجدتها، مد يديه مجبرًا بسلطان الهوى، حملها وكأنه يحمل الكون بين ذراعيه، بل شعر كأنه سيد الكون في هذه اللحظة، يمددها، هذه المرة لا يفكر في الذهاب إلى طبيب، يريدها أن تلاقي مصيرها تعويضًا للإهانة، تموت أو ترتمي في أحضانه بمحض إرادتها، حينها يتجمع التراب ويلتئم الشرخ فيقام الجدار.

نام جلال، حتى يستيقظ على صوت صريخ يصم الأفق، يقوم هلعًا... يخشى سقوط الجدار للأبد.

t.me/qurssan

(٨)

اطمأن قلبه حينما وقعت عيناه على سلوى نائمة في سريرها كمَلَك حزين، أخذ نفسًا عميقًا، وذهب ليفتح الباب، استوقف أحد المارة، يسأله عن الخبر، فيجيبه:

- عم فرج مات.

يمشي جلال في جنازة العم فرج اصفر وجهه ودمعت عيناه، يحس بغم ثقيل يجسم على صدره، رغم كل ما فعله الرجل من عجائب كان يحبه، يراه طبيعيًا، يبدي ما يبطن ويبول على أهل القرية دون خوف، دومًا ما كان يقول له: «أبو وجهين ملعون»..... حتى على الرغم من طرده لزوجته وولديه التمس جلال له العذر، يراه أضاع من عمره الكثير لأجلهما، بقي القليل فقط للمتعة، ودومًا ما تكون للمتعة خسائر، وقد حملت الزوجة أعباء ذلك كله على كاهلها، ويا للعجب فقد رآها جلال تشق الجيب وتُعدّد والدموع تهبط من عينيها كالسيل، أحس حينها أن المرأة ما زالت تحمل بداخلها روح الآلهة أو ربما خداع الأفاعي.

يصل المقابر، يخرج بضعة رجال الجثة الراقدة في أحضان الكفن من النعش، يحفر اثنان بالـ «كوريك»، ثم يضعون العم فرج في قبره، يُهال التراب على جثته، ويسدل الستار على أفعاله

t.me/qurssan

المثيرة للدهشة، يمر شريط الذكريات في عقل جلال... يجهش في البكاء.

***

بعد مضي أيام رحلت زوجة فرج اليهودية من القرية، دخل عليها عزت وعوض وقاما بطردها من الدار، بكت وتوسلت لهما حتى تبقى في مأواها التي عاشت بين جدرانه، لكن عوض جذبها من شعرها وجرَّها كما تُجر العنزة حين الذبح، وطردها من الدار، ثم بصق عليها قائلًا بغضب:

- فاجرة.

قفلا الدار بالمزلاج وعادا لدارهما الصغيرة، بعد يومين عادا محملين بعزالهم البسيط على عربتي «كارو» يجرهما حماران طاعنان في السن، يقفز عوض من العربة ليجد المزلاج مفتوحًا. فيحاول فتح الباب وبوادر قلق تتحرك بداخله، لا يستطيع، فيدق على الباب بعنف، لحظات تمر كالدهر، المزلاج يتحرك، ويظهر «سعفان الجنايني» بشاربه الكث وعينه الضيقة، يقول:

- ما لك يا عوض؟... الباب ممكن ينكسر... بطل غباوة.

يشمر عوض منخاره الأفطس، يزوم كالوحش صارخًا:

- أنت مخبول يا سعفان ولا جرى لك حاجة؟... الدار دار أبونا ويجي الجنايني يطردنا؟!

يرد سعفان ببرود:

- الدار دار الباشا.

t.me/qurssan

يظهر عزت خلف عوض، يرسم ابتسامة صفراء على وجهه، يقول:

- دار الباشا إزاي واحنا ورثة رب الدار اللي مات ورحل؟!

ينظر لهما سعفان شامتًا:

- ما هو الوريث باع للباشا.

يجز عوض على أسنانه في غضب:

- ماذا تقول يا رجل يا خَرفان أنت؟

- لا أُعيد كلامي لودن واحد أطرش.

ينفلت من عوض زمام أمره:

- يلعن أبوك.

يضع عزت كفه على فم عوض ليشد لجامه المنفلت، لا يستطيعان مواجهة الباشا أو الوقوف أمامه، يدركه قبل أن يحل عليهما العقاب، يسأل هادئًا:

- لكن من الوريث الذي باع للباشا؟

يجيب بلهجة محايدة:

- زوجة أبيك اليهودية.

يضرب عوض جبهته في الحائط ويقول ذاهلًا:

- كيف؟!

يضحك سعفان على تهوره ويجيب:

- أبوك كان كاتبلها الدار باسمها.

t.me/qurssan

يقول عزت في نفسه:

- ربنا يجحمه مكان ما راح، ذلنا وهو عايش وهو ميت.

يندفع عوض مدافعًا عن أبيه بحماس:

- عليَّ الطلاق الرجل لا يمكن يعمل هذا أبدًا، أبو عزت يخاف من الحرام، حتى يوم ما حب يدلع نفسه، دلع نفسه في الحلال... الحاج فرج مستحيل يغضب ربنا في آخر أيامه.

يكتم سعفان ضحكة ماجنة في ضلوعه، يقول:

- هذا ما حدث، والآن طَرَّقنا أنت وهو من غير مطرود.

يريد عوض أن ينطحه برأسه حتى يفرغ شحنات الغضب التي يمور بها صدره، لكنه يتماسك، ويجذبه عزت من مرفقه ليرحلا بأقل خسائر ممكنة، يديرا ظهرهما لسعفان، يستوقفهما:

- صحيح.

يلتفتان، الأمل يبزغ من عينيهما، يترقبان بصبر أيوب كلام سعفان، يقول:

- الباشا اشترى الفدان اللي حيلتكم من نفس الوريث.

يتوارى الأمل ويحل على وجهيهما سوادًا عظيمًا، يقول عوض كالفاقد لكل شيء:

- ملعون أبوك يا عم سعفان.

يضحك سعفان شامتًا... ثم يغلق في وجههما الباب.

***

t.me/qurssan

تخرج «راشيل» من الدار بملابس ممزقة، تبتلع الإهانة وتمضي في طريقها، حقها ستأخذه بعد الرحيل، تدرك الآن صواب قرارها، ذهبت لـ «مولد» قبل سابق وخرجت منه خالية الوفاض، هذه المرة تحمل الحمص وأكياس الحلاوة، تبتسم حين يجول بخاطرها منظر ابني فرج، تعرف أن عوض سيصاب بحرقة في مؤخرته لن يداويها أي عشب من أعشاب القرية، وعزت سيكتم سُمه في صدره حتى يموت به، تدق على باب عزرا، تفتح إيستر لها:

- راشيل... من فعل بكِ هذا؟

ترتمي في حضنها، وتلفظ إهانتها على صدر إيستر، تبحث عن الصفاء والشفافية، يراها عزرا، يرحب بها ويجلسها على الأريكة الخشبية، يدعها مع إيستر التي تحاول تهدئتها، يعود عزرا بـ«بؤجة» ملفوفة، تمتلأ بالمال، يسلمها لها قائلًا:

- فلوسك من غير ما آخذ عرقي.

تمسك راشيل بها وتحاول فك عقدتها المتينة، يقول عزرا:

- ماذا تفعلين؟

- سأعطيك عرقك.

يبتسم عزرا ويربت على فخذها بحنو أبوي:

- اليهودي لا يأخذ عرقه من يهودي مثله؛ لأن عَرَقنا واحد.

تبتسم له ممتنة، يواصل عزرا حديثه:

t.me/qurssan

- لا بد أن ترحلين الآن، سأذهب بك لمحطة القطار قبل أن ينكشف أمرك.

تومئ برأسها موافقة، تشترط بقاء عزرا في داره، لا تريد جلب المشاكل له، حينما يبصرهم أهل البلد يمشيان سويًا فلن يرحمه ولدا فرج، وهو الآن في ظروف صعبة، خاصة بعدما علمت بمحاصرة داره منذ مدة، اقتنع عزرا وبقي في النهاية، أوصاها بنفسها، وعانقتها زوجته ثم ودعاها وأغلقا الباب. تسير في الليل البهيم، تتذكر خور فرج، ترنحه، أنفاسه المقطوعة، وامتصاصها روحه حتى خارت قواه وتشنجت عضلاته، يخرج النفس الأخير دون عودة، ترتعد حين تلمس أطرافه الباردة، تحاول هزه فلا يستجيب، كادت تصرخ لولا أن عقلها أوحى لها بفكرة شيطانية، تعمل حساب هذا اليوم، جهزت عقدين منذ فترة بمساعدة عزرا، واحد للدار والآخر لفدان الأرض، أحضرتهما ومسكت إبهامه ليختم، لحسن الحظ لم يكن يعرف الكتابة، لذلك تحقق لها ما أرادت، دست العقدين بين نهديها، وألبست الرجل جلبابه، ثم ارتدت ملابسها، وبعدها، أطلقت صرخاتها لتملأ المكان بالضجيج.

تركب القطار وتجلس بجوار الشباك، القطار يتحرك، عيناها تودعان الأراضي التي لم تمتلكها يومًا والناس الذين لم تعاشرهم، من بعيد تلوح دار فرج، تدمع عيناها وتتذكر ابتسامة

t.me/qurssan

الطفل التي كانت تولد على ثغره بعد الفراغ منها في بعض الأحيان، ستفقد القُطر كله.

***

جالسًا مع مالكة أمري، رفعتني من الأرض للعرش، أفرد ظهري بعد طول انحناء، تتخلل أناملها خصلات شعري، أرتجف كغصن شجرة داعبها النسيم، بصري عائم على ريش السجاد، أخشى التقاء العينين حين الاستواء، أفقد حينها قدرتي على المقاومة، ترفع ذقني بكفها، وترنو إليَّ بعينيها الخلابتين كزرقة السماء، أهيم فيهما وأتمنى الغرق دون نجاة، الموت عشقًا، قلبي أقدمه قربانًا لعبادتها التي ترفعني فوق البشر، وأكتب اسمها بدمي المسفوح على جدار المعبد؛ ليكون شاهدًا على تيمي السرمدي بالغدير الذي لا يشح منه الماء، تقترب بشفتيها مني، لا أصدق عيني، تطبع على فمي قبلة خاطفة، فأحس بنجمي يتوارى، يخاف الانكدار، الخيال ممتع والواقع مخيف، تتسع عيناي وتتسارع أنفاسي، تأخذ فمي بين شفتيها وتمسك بوجهي بين راحتيها، تقبل شفتاي المصلوبتين على خشب الخوف، ليس لدي قابلية للتصديق، المسيح لم يخلق إلا الآلام، وأنا أحب المسيح ولكنني أمقت الواقع، سأمضي للوجهة التي لم يقع عليها اختياري... فأنا جئت من عالم رغم أنفي، وأعيش حياة أنا مجبور عليها، جبان أخشى الانتحار، خياري الأوحد في دائرة تبدو مغلقة،

t.me/qurssan

قلبي يهتز كترعة قريتنا حين يُلقى فيها حجر كبير، يمسني برق، ورعد يضرب صدري المصمت، أقول لها ذاهلًا:

- إنني أحلم.

تضحك وتمرر أناملها على جبهتي، جبيني، فمي، ذقني، ورقبتي، أقشعر، فتقترب من فمي من جديد، وتعتصر شفتي السفلى بين شفتيها الورديتين، تظل تأكلني لدقائق، ما زلت ذاهلًا عمّا حولي، باب الجنة مفتوح، أخشى دخولها، التعود قاتل، وأنا اعتدت على الصراط، لا جنة أتنعم فيها ولا نار تحرقني، بين بين، هكذا ولدت، أعيش وسأموت، تتركني حين تيأس مني، أقول:

- ما زلت في الحلم.

يطوف بوجهها طائف غضب، تصفعني بشدة، أبتسم، تقول:

- على الأرض.

أهبط من منزلتي الوهمية وأفيق من حلمي لأعود لواقعي، وجودي الحقيقي، حيث اختار لي أبي، تضع قدمها على رأسي وتقول باحتقار:

- أنت الآن في الواقع، أليس كذلك؟

- بلى، يا مولاتي.

تقوم حين تسمع صوت جلبة في القصر، تسحبني من طوقي ونهبط السلم بحذر، أخرج لساني وأدلدله أمامي، أريد الاستفاقة من حلمي المريع، نصل للصالون، يقول الباشا لزوجته:

t.me/qurssan

- القاهرة حُرِقت.

- من فعل هذا يا باشا؟

يجيب الباشا حائرًا:

- الإخوان، الوفد، الملك، الإنجليز... لا أحد يعرف.

تقول غدير، وهي تشعر بالقلق:

- من يعرف يا باشا؟

يجيب صارمًا:

- قلت لا أعرف، لكن ليس المهم من الفاعل.

تسأل «دولت هانم» بفضول مستبد:

- ما المهم يا باشا؟

- المهم من سيستفيد من هذا، أخاف من كارثة.

تتوتر غدير وتقول:

- أي كارثة يا بابا؟

نحن والملك والإنجليز في مركب واحد، والحريق لن يهز مركز أحد مثل الملك، وإن ذهب الملك لن يستمر الإنجليز وحينها ستكون نهايتنا.

تقول دولت هانم بلهجة متوسلة:

- أرجوك يا باشا، لا تخيفنا، فلن يتغير شيء في هذا البلد.

يربت الباشا على كتفها ويطلق ضحكة مجلجلة ليبث في صدريهما الأمان، يقول:

t.me/qurssan

- عندك حق دولت هانم، فالسيد سيبقى سيدًا والعبد سيظل عبدًا مهما تبدلت النُظم.

- أختلس نظرة معجبة للباشا، فالحق ما قاله، فأبي كان كلبًا لذلك فأنا صرتُ كلبًا وسأبقى كلبًا حتى وإن اختلف السيد.

***

الليل يسبل جفنيه على البرية، الجو به لسعة برودة ممتعة، الناس في الدور يستدفئون بالنار المنبعثة من «الكوالح» المحروقة على «الشالية»، لا سبيل لإشعال الحطب الليلة أمام الدور، الهواء كفيل بإخمادها، يركض سلطان في الشوارع والأزقة، يحمل في حجره الطوب، يقذف به كل باب يمر أمامه، بداخله طاقة متوهجة يروم الخلاص منها، ناقم على القرية وما فيها، يريد الهدوء وإطفاء أوار النار، حين يصل أمام دار عوض، يلقي على بابها سيلًا من الطوب، يخرج عوض فيرشقه سلطان بطوبة موجهة نحو رأسه، يصرخ ويسبه بحنق، يضحك سلطان ويركض من أمام ناظره، يصل لدار عزرا، يلقي بحجر بعد طول تفكير، يركض حين يُفتح الباب، تلمحه إيستر فتشهق من المفاجأة.

ذهب عزرا لمصر، يباشر تجارته في توريد القطن، الدار خالية والبرد يحتاج للنار، تجلس إيستر ترقب ظهور سلطان على مسامير الشوق، تنخزها كلما مر الوقت دون أن يظهر، الليل يقترب والمجذوب مُختف، تضطر أن تكتفي بذاتها، تفتح الباب،

t.me/qurssan

تبصر سلطان، ينطلق قبل أن تقع عيناه عليها، تخرج خلفه غير عابئة بأي شيء، تقودها شهوتها الجامحة، تعوي بداخلها فتروم الافتراس، سعار تام يشملها في هذه اللحظة، تمضي خلفه وتحاول تقليل المسافة بينهما، تراه على مرمى البصر، تجد في السير، تختفي الدور، فتركض بكل ما أوتيت من قوة، ثم تصرخ بعلو صوتها:

- سلطان.

يقف مكانه فجأة، يخشى الالتفات، يظن أنها جنية تريد أن تسحره، أو «ندّاهة» ستجذبه خلفها وتمتص دمه، يحاول تحريك قدميه، لكن تنميلًا تامًا أصابهما، عضلاته لا تطاوعه على الحركة، الأقدام تقترب، مثبت كمسمار، تضع يديها على ظهره فيبول على نفسه من فرط الهلع. تضربه على ظهره قائلة:

- سلطان.

الصوت ليس غريبًا عليه، رجفة مست قلبه البكر فأحس شعورًا لذيذًا، يستدير فيبصر على ضوء القمر وجه إيستر، يقول ذاهلًا:

- جِنيَّة.

تصفعه إيستر على جبينه قائلة:

- بعد ما قطعت نفسي وراك تقول عني جنية يا معدوم العقل.

يضحك سلطان، ثم تقوده خلفها إلى البيت، يحدث مثلما حدث في المرات السابقة، لكن هذه المرة أكثر جموحًا.

t.me/qurssan

(٩)

استيقظ الباشا صباحًا على صوت الراديو، حنجرة لم يعتد عليها تلفظ في أذنه كلمات كالإبر، يُدعى «أنور السادات»، لم تتبين رُتبته، يفزع من على سريره، ينتهي البيان، تنتابه حالة هيستيرية من الغضب، يصرخ ويصيح ويلعن كل من يقابله، يهبط درجات السلم بالـ «بيجامة»، يبدو أمرًا جللًا قد حدث، تهرول نحوه دولت هانم، وتهبط مولاتي من غرفتها بـ «روب» النوم، بهية كما اعتدتها دومًا على الرغم من الوجل الذي يكتنف ملامحها، تسأل:

- ماذا يحدث يا باشا؟

يجيب بصوت امتزج فيه الخوف بالغضب:

- مصيبة، كارثة وحلت على دماغنا.

تحاول دولت هانم التمسك بأهداب الهدوء:

- أي مصيبة يا باشا؟

يجيب كصرح يتداعى:

- الجيش انقلب على الملك.

تتسع عينا دولت هانم:

- Oh mon dieu.

t.me/qurssan

تقول غدير والقلق ينهشها:

- وماذا يعني ذلك؟

- يعني أن نظام الكون سيختل.

- كيف؟... قد يكونون منّا.

يجيب الباشا قانطًا:

- أولاد الباشاوات لا يثورون على الملوك.

يتذكر أمرًا مُهمًا، ينادي على البواب صارخًا، يأتيه مهرولًا، يأمره بسرعة استدعاء «عاطف النو» رجله الذي يعتمد عليه في الأمور القذرة، حان وقت وجوده ليحرسه مع مجرميه، لبَّى البواب الأمر طائعًا، وذهب حيث أُمر، تسأل غدير ببراءة:

- لمَ كل هذا الخوف يا باشا؟

يأخذ نفسًا عميقًا ليسترد هدوءه المبعثر:

- الفلاحون مثل البهائم، طول ما أنت معك الكرباج يخافون منك، وفي اللحظة التي يسقط فيها منك، يرفسونك برجولهم، هكذا هي الحياة.

تقول غدير بذهول والخوف يطغى على صدرها:

- لكنهم يعملون عندك، ولحم أكتافهم من خيرك.

يرد الباشا ناقمًا:

- لن يتذكروا سوى خيري ليتقاسموه بينهم، ثم يوزعون لحمي على الأفواه الجائعة.

t.me/qurssan

يدور بخيال غدير لوهلة، الفلاحون يهجمون على القصر، يحملون النار، ويحرقون القصر، ترتعد وترتمي في حضن أبيها، يضمها ويملس على شعرها الحريري قائلًا:

- لا تخافي، إن الباشا معك.

***

آب عزرا مع شروق الشمس، يطرق الباب، تقوم إيستر متكاسلة، تلعن في سرها الطارق، سلطان أتعبها كثيرًا في ليلتها المنقضية، جعلها طائرة فوق السحاب، تراقص النجوم، تبعثر الشهب بين نهديها، وتخبئ الكون في جسدها البهي، تجد عزرا متعرقًا، يدخل مسرعًا كأنه لص يهرب من مطارديه، تسأله خائفة:

- ما بك؟

يأخذ أنفاسه ويجيب:

- الجيش نزل الشارع، وشكل الأيام الجايه لا تبشر بخير.

تصطدم أقدامها فجأة بالأرض، تزفر في ضيق:

- اشمعنه يا عزرا؟

- كنا عايشين في استقرار، التغيير دومًا يهدد اليهودي؛ لأنه بلا وطن.

تفكر إيستر قليلًا، الحمرة التي كانت تعتلي وجنتيها لما حدث مع سلطان توارت وحل محلها الثلج:

- طالما نحن بلا وطن هنا، فلنهاجر لوطننا الجديد.

t.me/qurssan

يرد مهمومًا:

- ليس لنا وطن إلا هنا.

ترد إيستر غاضبة:

- وطنك هو ما تشعر فيه بكرامتك، وتحصل فيه على حقك.

يهم بالرد لكنه يطأطئ رأسه حين تذكر ما حدث، الحصار كان مقيتًا، والعجز كان قاتلًا، نظرة الخذلان التي رمته بها إيستر قضت عليه يومها، لم يمسها منذ هذا التوقيت، جسمه لا يطاوعه على اقتحامها، نام فَخره أمامها ولم يصحُ من سُباته إلا في لحظات نادرة، حين تلامس أقدامه أرض القاهرة، يذهب للأزبكية، يدخلها حُرمة ويخرج منها رجلًا، بخطوات واثقة تضع إيستر راحتها على رأسه:

- يا عزرا أنت هنا مثل المستأجر، مهما طال الزمن ممكن في لحظة المالك يطردك وأنت لا تقدر حتى تتنفس في وشه.

يقول عزرا بصوت مرتعش:

- لكننا ما زلنا هنا.

ترد عليه إيستر بيقين غريب:

- مسألة وقت، صدقني الوطن يعني القوة، ونحن مستضعفون هنا.

- لكن هذه أرضنا.

ترد إيستر ساخرة:

t.me/qurssan

- الأرض لمن يملكها يا عزرا، ولا أنت كبرت وخرُفت.

يقول عزرا بصوت هامس يتجلى فيه الحزن:

- لكن روحي في هذا البلد، ولا سبيل للعيش بعيدًا عنه.

يستعر الغضب في ملامح إيستر تتركه وتمضي لغرفتها صارخة:

- يبقى روحك هتطلع فيها وتبقى ارتحت وريّحت يا عزرا.

***

تورقت شجرة سلوى من جديد بعد الجفاف الذي أصابها، بدأت تشعر بتحسن تدريجي في صحتها، الجو الأسري المحاطة به يسري عنها، أم جلال تعوّضها عن حنان أمها التي حُرمت منها في بدايات عمرها، ونظرة جلال التي تحاصرها تشعرها بالحب الذي حرمت منه، تحس بكونها إنسانة، نظراته تناجي روحها، لم يعد جسمها هو محل الطمع للأفواه الجائعة، صار لديها شيء آخر يشعرها بالحياة، لذلك حين صلبت عودها وبدأ جسمها يسترد عافيته، فاجأت جلال عندما كانت الدار خالية بعناق حار، كان يعطيها ظهره، نادت عليه فالتفت، قبل أن يعي ما يحدث كان بين أحضانها، تجهش في البكاء على كتفه، تريد الإلقاء بكل همومها، تريد أن تصفو من الكدر المخيم على صدرها، تضغط عليه أكثر، تطارد الأصوات والهلاوس، وتمسك الواقع بين يديها، يطوقها جلال في اشتياق، يتمنى توقف الزمن، قلبه يزقزق في

t.me/qurssan

عُشه السعيد، وروحه تهيم في وديان السرور، ترفع رأسها، أنفاسها الحارة تدغدغ أذنيه، تطبع على رقبته قبلة طويلة، تتراخى مفاصله، ويسقط ذراعه من على خصرها، تستغل الفرصة، فتركض وتغلق خلفها الباب بالمزلاج، وقهقهاتها تتعالى خلفها، وجلال فاغر فمه لا يصدق ما حدث.

يجلس مع أمه بعد عدة أيام، يتحسس مكان القبلة، يغمض عينيه للحظة، يتذكر، خدر شديد يسري في جسمه، قشعريرة تصيب مسامه، ذهول يشمل الكيان، ضمت روحه في محرابها الطاهر ثم شتته بقبلة شهية، تبعثر على إثرها كرماد، يود لو لملمته بين راحتيها، تخرجه أمه من استغراقه في أحلام اليقظة، تسأله:

- جلال... ما بك؟

يحاول استغلال فرصة غياب سلوى عن الدار، ذهبت لتشتري طماطم، يريدان عمل طاجن بامية باللحمة، يثير شهية جلال، يقول لأمه:

- أريد الزواج.

تستبشر الأم فرحة وتتهلل ملامحها، تنتظر هذه اللحظة منذ سنين، تريد رؤية حفيدها قبل أن يدركها الموت، تقول:

- يا ألف نهار أبيض، ده يبقى يوم المُنى، يوم ما أشوف عروستك.

- من غير حتى ما تعرفي من العروسة؟

تبتسم رابتة على ظهر يد ابنها قائلة:

t.me/qurssan

- لا يهم، المهم أن يرضى عنها قلبك.

تغشي الفرحة ملامح جلال فيداهمها بقوله:

- العروسة هي سلوى.

تتجمد الأم للحظات، ويكتنفها الصمت، تشعر بخيبة أمل فادحة، ابنها الوحيد وفرحة عمرها يريد دخول أرض سبقه إليها غيره، تحس ضيقًا يخنق صدرها، تقول:

- لم تجد في البلد كلها إلا هذه المرأة؟

يرفع جلال يديها إلى شفتيه، يقبلهما قائلًا:

- القلب له أحكامه يا أم جلال، وأنا سعادتي ستكون معها.

تقطب الأم قليلًا، فيقبل جلال رأسها:

- محتاج ست الكل تبارك لي الزيجة.

تقول الأم ساهمة:

- اعمل ما يريح قلبك.

يبتسم جلال ويقبل يدها اليمنى ثم يعانقها فرحًا:

- ربنا يحفظك يا أمي.

***

تعود سلوى إلى الدار، تحمل الطماطم في حلة من الألومنيوم، يقف جلال خلف الباب، حين مروقها ينفخ في أذنها، تسقط منها «حلة» الطماطم، وترتعش من الهلع، ترى ابتسامة جلال فتبكي، يمسك بيديها، ويمسح دموعها بمنديل قماشي أخرجه من جيب جلبابه، يقول لها:

t.me/qurssan

- لم أكن أعرف أن قلبك ضعيف لهذه الدرجة.

تنظر له سلوى بغيظ بعدما سرحت نظرها في الدار فلم تقع على أمه:

- حيوان.

يغلق الباب، ثم يعانقها هذه المرة بشدة، تشعر بروحها تنساب في نهره وتتمايل على ضفتيه، وبقلبه يسيح كقطعة زبدة على طاسة مشتعلة، يتبادلان النظرات، يقبلها بعنف، ويشرب من شفتيها جرعة «بيرة»، تُذهب عقله الخفيف، يلهثان، ويمسك يدها حتى لا تهرب منه كالمرة السابقة، يقول:

- بحبك يا سلوى.

يعلو وجنتاها تورد فاتن، تطرق ببصرها نحو الأرض، يهمس في أذنها فتزغرد روحها:

- أريد الزواج منك.

ترفع رأسها للحظة، تمده ببرقها فتضيء جوانحه، ويشعر بلذة روحية تتدفق في صدره، ترخي رأسها من جديد، تكتم ابتسامة خجلة تفيض بالسعادة:

- موافقة؟

تنظر له للحظة، ثم تومئ برأسها موافقة، يدخلان في نوبة ضحك طويلة.

***

t.me/qurssan

تمضي الأيام قاتمة، تعاملني مولاتي بجفاء، أشعر بروحي تتشقق ويصيبها صدع لا سبيل لرأبه دونها، تتسرب للباشا أخبار سرية؛ الضباط سيصادرون الكثير من أراضي الباشاوات، يشعر بالامتعاض ويعتريه الغضب، يقول: «ولاد الرعاع عاوزين ياخدوا مكان ولاد الناس».

تثور غدير لأتفه الأسباب وتنهال عليَّ ضربًا وتلطيشًا، جسمي يأن من وطأة الألم المبرح، سابقًا كان ضربها يحمل الدلال، الآن يحمل مزاجها المتقلب الغالب عليه النقمة على الجميع، صرت أخشاها، لكنني لا أريد الهروب منها، اكتشفت نفسي معها وعرفت السعادة بالقرب منها، ارتشف فؤادي من خمر عينيها فارتجف ثملًا وحلّق في الآفاق، أحبها مجبرًا، ولو لم أكن كلبًا لأحببتها مختارًا، تبدو ببهاء الآلهة، هرطقة فارغة، لم أبصر إلهًا من قبل، التشبيه هنا يفتقد لمعناه وقيمته، لكنني أخلع عليها كل صفات الكمال، حتى غضبها بعد الاعتياد صار ساحرًا، ضرباتها بت حين أذهب لغرفتي أنتشي بها، أتحسس العلامات التي تركتها على جسمي، موسوم بلمساتها، خلقت مني شيئًا آخر، فوق أهل القرية، وتحت أقدامها، منزلة يحسدني عليها الجميع، وأحسد نفسي عليها، كل منّا يحمل بداخله نواة العبودية، لإله، لفكرة، لمذهب، لدين، أو لكل شيء، ورفعتني غدير دون البشر بعبادتها، جعلتني استثناءً، إلهة تصطفي كلبًا ليصير عابدها الأوحد، هذا

t.me/qurssan

فوق تصوري وأعلى من سقف أحلامي، وحدها التي منحتني لذة العيش، مذ رأيت ماهية أبي كنت أعيش في ضنك، الموت حينها كان أمنيتي الوحيدة، لكن هنا وتحت عينيها بُعثتُ من جديد، وكان حزنها أول ما يفت في قلب أحد، هو قلبي أنا.

بدأ الباشا في تصفية أملاكه، تعجب أهل القرية وظنوا أن القيامة على وشك الحدوث، الباشا يتداعى في غمضة عين، والشامتون يكثرون يومًا بعد يوم، أخشى من اقتراب الرحيل، نعيم العبودية خير من جحيم الحرية، فكيف للحياة أن تستقيم دون غدير؟! أعلم أن الأمور الجيدة تنتهي دائمًا بشكل سيئ، لكن الحماقة الإنسانية تجبرني على التعلق بأهداب الأمل الواهية، غريق يدرك أن القشة لن تنجده ومع ذلك يتشبث بها، غباء وجودي موضوع في الطبيعة كلها حتى لا تثور عليه، السعار حين يصيب الكلب أول من يعضه سيده، إنني أرثي لحال الباشا، فقط ما يهمني أن تبقى غدير، أو أن أموت قبل فراقها.

انتهى الباشا من تصفية كل شيء، سيغادر إلى مدينة كبرى، ربما يرحل خارج البلاد، الحقائب مجهزة، أجثو أمام باب غرفة معبودتي، لعنت الثورة ورجالها، محقون هؤلاء الذين سمونها «انقلابًا»، الثورة تحمل الخير، وما حدث لحياتي انقلابًا، انسلاخ من عبوديتي لمعبودتي إلى الانعتاق منها، قبَّح الله التغيير... يمضي بنا من سيئ لأسوأ، يجعل عاليها سافلها، وسافلها عاليها،

t.me/qurssan

وأنا ارتضيت بالقاع، والصعود للقمة بعد الزهد يولّد الحسرة، وحسرتي في رحيل معبودتي وفاجعتي فيها لن تعوضها الأيام... تخرج من غرفتها، تبصرني، تشفق على حالي، تسحبني من طوقي وتدخلني غرفتها، جنة ستكون بلا رب، تُترك للعدم، تضع ساقًا على ساق، تجعلني أتذوقها، أتشمم حذاءها العالي، وأخلعه بفمي، أنهال بالقبلات على قدميها، أمصمص أصابعها، وألعق كعب قدميها الزهري، أشرب الرحيق منها وأرتوي من مائها السلسبيل، تسحبني فجأة من طوقي، تشير لي بسبابتها كي أنهض، أقف، فتقوم من على كرسيها، تقترب من فمي، تقبلني بشبق، تبث في ريقي ماء الحياة المفعم برائحة الورد، هذه المرة أبادلها القُبلة وأتذوق رُضابها، الوداع يجعلنا لا نخشى شيئًا، نواجه الأمور بشجاعة... «ضربوا الأعور على عينه، قال ما هي خربانة خربانة»، أعض على شفتها السفلى، تتأوه ثم تفلت شفتها لاهثة، تقول بعين بارقة:

- سأشتاق إليك يا «هلالي».

تمنحني عزاء الرحيل، تجردني من ماهيتي وتعيد لي اسمي من جديد، لم أكن أدري أنني كي أسترد اسمي لا بد من دفع ضريبة بهذا الإجحاف، وددتُ لو بقي الوضع كما هو عليه، لكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، وسفينتي يبدو أنها ستسقط تحت قسوة الأمواج في أيامي القادمة، أقول:

t.me/qurssan

- سأموت دونك يا معبودتي.

تضع أناملها على فمي، شفتاي تتحركان تلقائيًا للثمها، تبتسم مواسية، تقول لي:

- وداعًا عزيزي «هلال».

تدمع عيني ويقام في داخلي مأتم الأحزان، تمضي وتغلق الباب خلفها بالمفتاح، فأصلي على فؤادي المطعون صلاة الجنازة.

t.me/qurssan

(١٠)

ذهبت سلوى لدارها، لتلملم حاجياتها وأغراضها، وتترك أحزانها وهمومها في زوايا الدار وبين جدرانها الواهنة، عانت كثيرًا في هذه الحياة، تتذكر رجلًا عجوزًا يدخل عليها في أحد الليالي، يعرض عليها المال مقابل المتعة، تحتاج لقوتها وقوت طفلها الصغير بعد طلاقها من أبيه، رماها كـ «فردة مركوب» وترك لها الطفل دون أن يهتز له جفن، رحل ولم يأتِ بعد مضي سنين، الحياة تضيق بها وبصغيرها، حاولت العمل لكن الأيدي العابثة طاردتها أينما ذهبت، والعيون الجائعة تطمع في لحمها الشهي في كل مكان تذهب إليه، حتى أتى هذا الرجل، سيمنحها كل شيء مقابل ليلة على سريرها كل أسبوع، رفضت في البداية، لكنه عرض عليها الزواج سرًا، وافقت لكنه اشترط ألا يعرف أحد من القرية، وأن تكتفي بطفلها، الحمل يعني انتهاء كل شيء، استكانت تحت وطأة الجوع، وهزت رأسها موافقة، ابتسم حينها، وأخبرها ضاحكًا:

- سأجعلك تحلفين بحياتي.

نكث قَسمه وجعلها تبصق على كل لحظة قضتها معه، يلوح لها في الغرفة، على وجهه ابتسامة هازئة، يلعب لها حاجبيه، تبصق على طيفه:

t.me/qurssan

- سأتزوج سيدك وسأنجب له طفلًا نربيه سويًا.

يحل الرضيع في غمضة عين محل وجه أبيه، يصرخ خائفًا، تمشي به متدثرة بالظلام، يصفعها العجوز حين علم بحملها، تتصدع روحها تحت مطرقة الإهانة، يرمي عليها يمين الطلاق، تكاد تموت كمدًا، يتبرأ منها كشيطان آدم، تلعنه فينهال عليها ضربًا، تتكوم حول نفسها لتحمي بطنها من ركلاته القاسية، تضع الطفل في «شنطة» كبيرة، تتذكر ولادته في دار قابلة من قرية بعيدة، تعيش وحدها وتساعد الخاطئات، تعلق الرضيع في فرع شجرة التوت، المطر يتساقط بغزارة، وأقدامها تغوص في الوحل، تطبع على خده قبلة وتتركه باكية، ليلاقي مصيره وحده دون معين، فتعوي الصرخات في أذنها، تضع يديها عليهما، لكن الصوت يأتي من داخلها، ينزف الدم من الوجه حتى يختفي تحت لونه القاني فيتلون خلفه وجه طفلها الصغير، نظرته الأخيرة، ضحكته البريئة، صوت القطار، الدماء المتناثرة بين القضبان، ينتابها الهلع، وتحاط بالوجوه الأربعة، يضحك الزوج النذل، تتذكر كلمته حين طلبت منه البقاء لأجل صغيره:

- ياكش تولعوا مع بعض في نار جهنم.

نظرة العجوز الشامتة، صرخة الرضيع، الدم الغزير على وجه الطفل، تصرخ بشدة حتى تجد جلال أمام عينيها، يهدئها مُعانقًا:

t.me/qurssan

- ما لك يا روحي؟

تحاول استرداد أنفاسها، روحها منهكة، ودقات قلبها في حالة ثوران، تقول:

- امنحني وعدًا بأنك لن تتركني.

يلمس جلال على رأسها بحنان، يقول:

- أعدك يا سلوى.

صوتها يتهدج ودموعها تتساقط:

- حتى وإن كنتُ قاتلة؟

انفلتت من شفتيه آهة ذهول:

- نعم؟!

تحاول استرداد أنفاسها:

- جلال، الطفل الذي دفنته بجوار أبيك هو ابني.

تتجمد ملامح جلال وتتسع عيناه:

- سلوى؟!... ماذا أصابك؟!... إنك تخرفين.

يستحيل بكاؤها لنحيب مكتوم:

- اتركني أتطهر من الشوائب.

يصمت للحظات ثم يسأل بدهشة مشوبة بالصدمة:

- ابنك؟!

تجيب بنفاد صبر:

- تحب تعرف مين أبوه؟

t.me/qurssan

يقول جلال تحت تأثير الصدمة:

- كمان له أب؟!

- لا... حملت فيه من الهواء.

- لا أصدق أذني.

تقول سلوى ونياط قلبها تتمزق تحت وطأة الألم:

- هي الحقيقة، وأبوه فرج، الله يجحمه.

ينتفض جلال كأن كلبًا عضه:

- فرج؟!

تجيب سلوى باكية:

- آه... فرج أبو شنب، أبو عزت وعوض.

تعتري جلال نوبة غضب مفاجئة، يصلبها بمساميره الثقيلة:

- لم تجدي إلا العم فرج وتلبسيه فضيحتك يا فاجرة؟ ما الرجل كان يتزوج على سنة الله ورسوله ولا جت عليكِ والحلال جاله شلل، ولا لأجل الرجل مات قولتي بالمَرة يشيل وساختك؟!

تفقد سلوى القدرة على النطق، تنزف الدم على صليب الألم من أعماق فؤادها، قطعها نصفين بمنشار كلامه، روحها «تفرفر» كدجاجة مذبوحة بسكين ثلم، تنظر له في حنق، تشعر بالخذلان، وتقول:

- اطلع بره داري.

t.me/qurssan

يزداد غضبه وينظر لها باشمئزاز، يقول لها تحت تأثير الإهانة:

- عاهرة.

ويمضي حانقًا.

***

حصلتُ على خمسة أفدنة مثلما حصل الكثيرون من أهل القرية من الحكومة، حاولت بشتى الطرق تغيير رأيي فيما حدث، لكن الحنين لغدير يمنعني، أدري أنها خذلتني بعد مضي سنين، لأنني عرفت حين رحلت عني ما معنى مُطلَّقة، لم تكن فتاة مثلما ظننت في البداية، لكن لا يهم، فكل الطرق لا تؤدي إليها، عرفت أنها سافرت إلى بلد أوروبي، تزوجت هناك وتركت عابدها دون إله يقدم له قلبه كقربان لنيل الرضا، تائهًا أبحث عن ضالتي، مشاعًا بعدما كنت لها وحدها، احتكرتني ثم ألقت بي وسط الطريق. وأنا كلب أليف لم أتعلم العراك، أحس بغربتي بينهم ونفوري منهم، يهربون من طبيعتهم طوال الوقت، يخافون مواجهة ذواتهم، لو رأوا آباءهم مثلما رأيت أبي لتغير كل شيء، فالمرء على دين أبيه، وأنا لم أرد أن أكون كلبًا جاحدًا، فابن الباشا لا بد وأن يكون ابن باشا، وابن الكلب حتمًا سيكون ابن كلب، غدير وحدها التي منحت لوجودي سعادة لم أذق مثلها طوال حياتي، أشمئز من كل السائرات في الطريق وأبحث عن معبودتي بين النجوم في ظلمات الليل، أناجيها وأتذكر طعم قبلتها، شفتيها الشهيتين كحبتي

t.me/qurssan

برقوق، الرطبتين كالندى الليلي، منحتني صدقة الوداع لروحي الفقيرة ولا تدري أن التفاح الأمريكاني ليس للفم الفقير، وصدري كصحراء قاحلة، لعنتها السماء فبخلت عليها بغيثها، فأمضي هائمًا على وجهي، أقف أمام القصر الموصد، الخالي من البشر، فأعتلي سوره وأدخل إليه متسللًا، أصعد من النافذة، تداهمني رائحتها العالقة بالجدران، أسير متتبعًا الرائحة، يزداد العبير كلما اقتربت من غرفتها، أفتحها، ثم أنظر بداخلها، مصلى قلبي المقدس، أجثو اشتياقًا للمعبودة الغائبة، تعلمت منها أن أهبط على أربع حين الدخول، أحبو في الغرفة حتى تقع عيني على الطوق، أضعه في رقبتي، فيتخايل طيفها أمام عيني، تسحلني، فأغمض عيني... أستطيع الآن التنفس بعمق.

***

ترتجف إيستر من الخوف، تشعر بين فينة وأخرى أن الباب سيُكسر عليها ويتم سحلها في القرية وقتل زوجها عزرا، منذ أن بادرت إسرائيل بالحرب والصدور تغلي بالحنق على اليهود، أخبرها عزرا منذ شهور: «التأميم سيؤدي لكارثة، أشعر باقتراب الرحيل»... جاءت الحرب لتؤكد هواجسه، هذه المرة لن يرحمهما أحد، وقد تعلمت أنه حين الحرب يُلغى القانون، ستكون دماؤهما بلا قيمة تُذكر، قد يُعد عملًا بطوليًا، ومن الممكن أن تحدث محرقة ثانية، هذه المرة بأيدي الأهالي، تقول لعزرا:

t.me/qurssan

- لم نعد نملك ترف الاختيار؛ إما الرحيل أو الموت.

شيء ما يجذبه لهذا البلد، حاول أن يكرهها وكل مرة يخفق في ذلك، أخبرها مهمومًا:

- عزرا لا يهرب من بلده لبلد تحاول الاعتداء عليها.

ترد عليه بغيظ:

- لم يعد هناك وقت للحماقة، وطنك هناك في أرض الميعاد، لكن هنا الكل يكرهنا ويتعاملون معنا كأغراب.

يقول مندفعًا مدافعًا عن حبه:

- لو حد دخل دارك وقال لك إن الدار ليست دارك، تسمعي كلامه وتمشي ولا تفقعي عينيه الاثنين؟

- الموضوع ليس في أحد بل في بلد بأكملها، ولن يستطيع صاحب الحق مواجهة بلد بأكملها ترفضه.

يرد بتصميم ليُنهي الحديث:

- لن أرحل ولو على جثتي.

تجز إيستر على أسنانها، وما تلبث أن تستبدل الحنق بابتسامة صفراء، تقول:

- يبقى على جثتنا، ولا فاكر إني ممكن أتخلى عنك؟!

يبتسم عزرا، ويعانقها بعد حرمان امتد لسنين.

***

t.me/qurssan

بعد مرور عدة أيام، يحن جلال للقاء سلوى، يؤنبه ضميره ويحس بتعجله في إصدار حكمه عليها، يبرر لها ما فعلته، ويلتمس لها الأعذار تحت وطأة الشوق المستبد بجوانحه، يقرر الذهاب إليها، ليقدم لها الاعتذار ويستمع للحكاية كلها، وفي النهاية سيسامحها مهما كان، غيابها أشعره بالفقد، قلبه ناقص ويريد الاكتمال بها، يدق بابها، حتمًا ستصفح عنه، سيتوسل إليها بكل الطُرق لتصفح عنه وتمنحه الحب، يود الزواج منها بأسرع وقت، هام بها كهيام النبات بضوء الشمس، يحيا بها، يتيه في عينيها وينسى العالم، ويغوص في محيطها المشبع بالحنان، لا يجيبه أحد فيعاود الطرق، الانتظار يدهسه بعجلاته البغيضة، ليتحرك الخوف بداخله، قد يكون أصابها مكروه، يدفع الباب بكل ما أوتي من قوة، ينفرج أمامه فيدخل مناديًا عليها، لا يأتيه جواب، فيواصل البحث، يدخل غرفة النوم كسبيل نجاته الوحيد، يهوي نحو الحضيض ويشعر بخيبة أمل قاسية، وتعتري صدره وجع مرير، يحس بالاختناق، ورأسه يضربها صداع عنيف، حين يبصر دولابها خاليًا من ملابسها وأغراضها، يخرج هاذيًا كالمجنون، يتقصى خبرها من إحدى جاراتها، تخبره:

- باعت الدار بالأمس ورحلت.

- إلى أين؟

- إلى بلاد الله الواسعة.

t.me/qurssan

يتركها جلال ويمضي، لأول مرة، تهبط دموعه في الشارع أمام أعين الناس.

***

يرتشف عزرا القطرة الأخيرة من كوب الشاي، تراقبه إيستر من المطبخ، تزفر في ارتياح، ينادي عليها عزرا فتُقبل، يمسك يدها ويطبع عليها قبلة حانية، ثم يقوم ويقبّل رأسها، تتعجب من سلوكه الغريب، يخبرها بوجه بشوش:

- أحبك يا إيستر، اصفحي عني وتجاوزي عن تقصيري، فرغم كل شيء ما زلت أحبك.

تسأل بتوتر:

- ما لك يا عزرا؟!

- لا شيء يا حبيبتي.

يرفع يدها مرة أخرى ويلثمها بخشوع، يحس بعد لحظات بوجع رهيب في بطنه، يشعر بدوار، يترنح، الألم لا يطاق، يكتم صرخاته في جوفه، على وجهه ابتسامة تفيض بالمودة نحو إيستر، ومن عينيه تنبع نظرة حب تساع الكون، روحه تنسحب منه:

- أحبك.

ثم يسقط ويلفظ أنفاسه الأخيرة، تنظر له إيستر بملامح جامدة:

- وداعًا يا عزيزي.

t.me/qurssan

تتركه وتدخل غرفته، تحزم ملابسها جيدًا وتضع علبة الذهب تحت الملابس، تهم بالذهاب، لكن عينيها تقع على عزرا، تقول:

- اغفر لي يا عزيزي، ففي النهاية حققتُ لك أمنيتك الأخيرة.

***

أذهب من جديد للقصر، أجده هذه المرة غارقًا في الأضواء، أبصر بوّابًا جديدًا أمامه، أسأله عن صاحب القصر، يجيبني:

- عزيز بيه الملّاواني.

- مين يعني؟

- رتبة كبيرة في الجيش يا سي الأفندي.

ضحكت حتى سقطت على الأرض، يظن البواب أنني مجنون أو ملبوس بعفريت، عجيب هذا البلد، رحل الباشا وجاء البيه، لم يتغير سوى الثوب، أخذ مني مسجدي ومنعني من الصلاة، محرابي مدنس بحذائه الثقيل، ومكان الوضوء الذي تغتسل فيه روحي من الشوائب لتصفو وتعلو قد انقطع عنه الماء، أشير للبواب مودّعًا رغم دهشته، وتشيع عيناي معبودتي نحومثواها الأخير، سأزرع أرضي لعلني أجد في باطنها في يوم ما كنزي المفقود.

***

يحتار سلطان منذ أيام، لم يبصر إيستر رغم مروره أمام الدار طوال اليوم، يرابض في النهاية أمام الدار، لا أحد يهتم بشأنه، يتركونه يفعل ما يحلو له، في النهاية، بسبب تراكم الطاقة داخله

t.me/qurssan

يطرق على الباب بشدة، لا يستمع لصوت إيستر، يدفع الباب فلا تستجيب، يستعين بأحد المارة، فيستجيب البعض بدافع الفضول، يترنح الباب أمام دفعاتهم الخشنة، يدخلون، فتتوقف خطواتهم عندما يبصرون عزرا، ممددًا على الأرض، مغمض العينين، يقترب منه سلطان، ينظرون له من أماكنهم، يشتم رائحة عطنة، يهزه فلا يستجيب، يقول:

- عزرا نام ولن يستيقظ ثانية.

يهرع الواقفون مغادرين، يخافون الاقتراب منه بسبب الرائحة المنبعثة من جسمه المتحلل، وحتى لا يضعون أنفسهم في أسئلة لا حصر لها، يتركه سلطان ويمضي مفتشًا عن إيستر في الغرف، لا يجدها، يلطم خديه، ويتقلب على الأرض كالشاة التي تُشوى على سيخ، يتقافز ويضرب بكفيه على ركبتيه، ثم يخرج راكضًا، يضرب على باب دار شوقي، يخرج منها فزعًا، يقول له سلطان:

- عزرا أخوك مات... روح ادفنه.

تصيب شوقي صدمة، يحاول الاستفسار لكن سلطان انطلق كالرمح، يمضي نحو المقابر، يرى إيستر هناك، بالقرب من شاهد القبر الذي ضاجعها عنده، عارية وتعض على شفتيها وتغمز بعينيها له، تغويه فيركض نحوها كالمسحور، يرتمي في أحضانها فلا يمسك إلا الفراغ، يعوي كالذئب الجريح.

***

t.me/qurssan

انتهى شوقي من دفن صاحبه بعد سلسلة من الإجراءات الروتينية المُملة، وضع جثته في عين بناها بعيدًا عن المقابر العمومية، اقتطع جزءًا من الأرض التي منحتها له الثورة، وقرر الاجتماع بصديق عمره في القبر مثلما اجتمع به في الدنيا، يقول له مودّعًا بعبرات حارقة:

- أراكَ على خير يا عزرا يا أخي، سأشتاق لك.

***

خرج سلطان من المقابر منتشيًا، يضرب على الطبلة بعنف، يزف للناس النصر، يقول:

- عبد الناصر هزم ثلاثة جيوش يا أهل البلد، غضنفر.

يغزو السرور ملامح الناس البسيطة، ويصفقون مُهللين، يفتح هلال شباك الدار، يرفع رأسه وينظر للسماء، وجلال يخرج من باب الدار ويلقي بحبات «الكرامل» على الأطفال، فتكسو السعادة وجوههم البريئة.

يتقابلون آخر الليل، جلال أبصر سلطان فأخذه معه للذهاب للترعة، جلسا أمام أرض جلال، ممدينِ على العشب، يناجيان الليل، ويبثان شوقهما للنجوم، يمسك جلال الناي، يداعبه ويسرح معه، يضرب سلطان على الطبلة، يختلط الفرح بالحزن، الانتصار بالانكسار، يمر بهما هلال، للمرة الأولى منذ زمن طويل يقرر إلقاء التحية، فيُشيران له بالجلوس فيظل واقفًا، يلتهب حماس

t.me/qurssan

سلطان فيضرب على الطبلة بقوة كالمسوس، ويغنى جلال في ذات الناي ويلقي بحزنه في جوفه، يخرج لحنًا قاتمًا محملًا بكآبة الدنيا، يرقص هلال ويهز ردفيه برشاقة، ويجهش في البكاء... يتوقفان فيستلقي الثلاثة على العشب، عيونهم هائمة في بحر النجوم يقهقهون بشكل هستيري كالأطفال، ثم تهبط العبرات.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

ماتت أمي، بعدها بثلاث ليالٍ... كلبتي الحنون رحلت وتركت جروها الصغير يهيم ضالًا في هذا العالمِ الموحش، فقدتُ الأرض والوطن، وصارت روحي مُشرَّدة تعيش الغربة في تُربتها السَّبخَة، كورقةٍ ذابلةٍ على غصنِ شجرةٍ ماتت جذورها، لم أبكِ ليلتها، تماسكتُ، فقد كانت المرةَ الأولى التي أرى فيها دموع أبي، من الآن يبدو أن الأدوار ستتبدل، شرخٌ غائرٌ أصاب حائطي الذي أستند عليه، الريح ستنفذُ بعد الآن دون رادعٍ، سأكون في العراءِ كـ «يوسف» جديدٍ في جُبِّ الحياة.

الغلاف: محمد المصري

t.me/qurssan

الثمن: ٥ جنيهات